



« أرنست رينان »

1963

نقلها إلى العربية

التزمت هذه الطبعة

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصري بالظاهر : بمصر



الفيلسوف ارنست رينان

محاورات رينان الفلسفية

للكاتب الفيلسوف والمؤرخ اللغوى

« أرنست رينان »

نقلها الى العربية

على أدهم

التزمت طبعه ونشره

دار العصور للطبع والنشر : بشارع الخليج المصرى بالظاهر : بمصر

تصدير

لارنست رينان مكانة ملحوظة الجلال فى تلك المنظومة الفريدة من مبرزى الكتاب، وأعلام الفلاسفة، وأعيان المؤرخين، ونوابغ المستشرقين، التى أزدان بها الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر ،وبعد صيته وعظم تأثيره واتسع ثراؤه . ورينان من أحق رجالات الأدب الفرنسى بالعناية وأجدرهم بالدرس لأنه نسيج وحده فى تعدد مناحى الفكر ، وتنوع المواهب ، فهو فيلسوف يعالج الموضوعات الكبرى ، وكاتب خلاب الأسلوب ، وناقد نافذ البصيرة ، ومؤرخ موفق الروية ، وقد جمع بين عمق الاحساس الشعرى واستفاضة المعرفة، وبين سعة العقل وحرية الفكر وسراوة الأخلاق والقداسة ، وكان لكل فكرة من الأفكار فى عقله مدار ، ولكل عاطفة بشرية فى قلبه صدى وأن كان يدمن تصفح الأفكار دون أن يستأسر لها ويملك العواطف دون أن تتملكه ، وقد ترك طابع هذه الصفات العقلية العالية ، والمناقب الخلقية الحميدة ، على آثار فنية رائعة حظها من التجويد وفير ، ونصيبها من الخلود كبير ، وهى علالة المفكر فى أحوال المجتمع وغاية الوجود ، وسمر المسافر فى غيابات التاريخ ، ومؤنس الحائر فى موحشات المباحث اللغوية .

وليس الاعجاب برينان وتقدير عبقريته موقوفاً على قومه وحدهم فقد ملأت شهرته الاقطار وملات العقول والأسماع، ورفعته الانسانية إلى مرتبة أساتذة الحكمة الخالدين، الذين تحرص على آثارهم وتصون أسمهم عن الأغفال والنسيان، وتلتمس عندهم الهبات الروحية والعزاء النفسي . على أن رينان كسائر كبار الكتاب، قوته متوقفة على قوة عصره، وكما أنه لامعنى للكلمة فى غير موضعها ، ولا قيمة للنغمة فى غير لحنها ، كذلك الكتاب العظماء لايمكن أن نفسر عريبتهم ونستوضح معناهم بغير الرجوع الى العصر الذى اشتمل عليهم . ولئن كنا نحصرُ النظر فى حياتهم وتقصر البحث على أفكارهم ومراميهم، فما ذاك إلا لأن النزعات الفكرية الغالبة على عصر من العصور لاتكاد تبدو بين غبار الأهواء العمياء والحوافز المظلمة . وإنما تظهر جلية ناطقة فى نفوس كبار الكتاب . والكاتب الكبير يتشرب عصره ويستوعب كل محصولاته الفكرية ويجمع تفاريق نزعاته ، ومن أكبر مميزاته أنه يحسن تمثيل عصره ويدل عليه أوضح دلالة . ومن الدروس النافعة التى يتعلمها الانسان من الفكر الحديث أن كل مفكرى عصر من العصور مهما تمادت بهم أسباب التفرقة يعبرون عن جوانب مختلفة لفكرة واحدة، وأشد ما يتجلى ذلك فى المذاهب الفلسفية . وليس التفوق فى الكتابة ، وتبوؤ الصدارة فى ديوان الأدب متوقفاً على

الابتكار بالمعنى الذى ألف ترديده بعض الكتاب الذين يحاولون أن يدخلوا على الناس أن الكاتب المبتكر مثل العنكبوت ينسج خيوطه من أمعائه . وانما الكاتب مثل النحل يمج الشهد الذى يجمعه من مختلف الازهار وشتى الحقول .

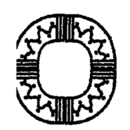
تلقاء ذلك رأيت أن أنسب طريقة أمهد بها السبيل الى فهم رينان بعض الشيء هى أن أكتب مقدمة موجزة أشير فيها الى موقفه من الحركة الفكرية التى قامت فى القرن التاسع عشر واكشف عن تأثيرها فيه . وهو بحث عويص مشعب الاطراف كنت أوثر السلامة على التورط فى غمراته . ولكنى أعلم العلم كله أن المترجم فى هذا البلد من واجبه أن يكون شارحا الى حد ما ، ومن استيفاءات عمله أن يضع القارىء على النهج وينير له الطريق ، وفى غير بلادنا يتولى الاضطلاع بهذه المهمة الناقد الصحفى ، ولكن الصحافة عندنا لا تزال قليلة العناية بنقد الآثار الادبية ، لذلك كتبت هذه المقدمة على سبيل الاضاءة ليس غير

وقد ترجمت هذا الكتاب لانى قرأته فاعجبت به . وراقنى منه تسهيله لمستوعرات الفلسفة . واشاعته النور فى النواحى التى يخيم عليها الظلام السرمدى ، فضلا عما فيه من مادة صالحة للتفكير الفلسفى وغذاء للعقول المتطلعة ، وسيتعرف القارىء منه على عقل من أوسع العقول وارقاها ثقافة ، يواجه فى صراحة مستحبة

أقدس المسائل ويتناول المشكلات المستعصية ، ويروى لنا بامانة نادرة أراءه وأحلامه ويقينياته وشكوكه وهواجس نفسه وطمحات خياله . واعلم أن من الشباب المتعلم لفيفا يقسمون البحوث الفكرية الى قسمين : قسم الضروريات وقسم الكماليات . وهم يلحقون مثل هذا الكتاب بالقسم الاخير . وليس من همى استنزالهم عن هذا التقسيم وتهجين هذا المذهب . وانى أعرف قصورى بازاء منطقهم القويم منطق الفائدة والمصلحة وتقدير الامور بالدرهم والدينار ووزنها بالقيراط والمكيال . غير أنى أقول أن ما يراه فريق من الناس من قبيل الكماليات قد يراه غيرهم من صميم الضروريات والعكس بالعكس ، ومن الناس من يرون أن الفكرة غير المنظورة أصدق وجودا من المادة الملموسة

وقد تحريت جهدى الامانة فى النقل ، لأنى لم أستطع أن اسيغ فكرة التصرف فى الترجمة . بيد ان الناقد المتشدد الولوع بتصيد الهفوات والوقوع على المعايب من تحريف و تشويه أو سهو وسوء فهم قد يصيب فى هذه الترجمة شيئا من بغيته . لانه ليس فى وسع مترجم مهما أوتى من البسطة والتمكين أن يدعى العصمة . على أنى لا أحسب مثل هذا الناقد أهلا لان تزف اليه التهانى وتدق له البشائر . وقد يثبت بنقده أنه فارس ميدان ومجلى الحلبة ولكن طريقته لاتدل على أنه يملك هبة النقد الساميه

والنظرة الفنية الشاملة التى ترفع الناقد الى مستوى الخالقين العظماء . وأرى أن مقياس الاجادة فى الترجمة ، هو القدرة على التشبع بروح المؤلف ، والناقد الفنى هو الذى ينظر الى الترجمة من حيث هى قطعة فنية تلائم روح المؤلف او تنا كرها وتعرب عنها أو تطمس معالمها . ويسرنى أن تقاس هذه الترجمة بهذا المقياس سواء أسقطت به أم قامت، وشال بها الميزان أم رجح . فاذا كنت قد وفقت فى سبيل ذلك بعض التوفيق فسيكون فى ذلك عزاء لى على ما احتملت من عناء وما أنفقت من جهد . واذا كان الفشل نصيبى فمما يسرنى أن يعيد غيرى الكرة ويتم ماحاولت أن أبدأه .



مقدمة المعرب

خصائص العصور التاريخية — نضوج الحاسة التاريخية فى القرن التاسع عشر — تأثر ثقافة القرن التاسع عشر بالثورة الفرنسية ونهضة الفكر الالمانى — أثر الروح الرومانتك — الفكرة الرئيسية فى الفلسفة الالمانية — الحركة الفلسفيه من كانت الى هجل — ظهور كارليل و رينان و تأثرهما بالفكر الالمانى — وجوه الشبه والخلاف بين كارليل و رينان — أثر الروح العلمية فى رينان — فلسفة رينان وتأثرها بفلسفة هجل — رينان و نزعة الدلتانتزم — حياة رينان و أخلاقه — رأيه فى الساميين

تاريخ الانسانية كل حى مترابط الاجزاء متصل الحلقات بحيث لانستطيع أن نفهم مظهرا من مظاهره حق الفهم اذا نظرنا اليه منفرداً مبتوت الصلة بسائر المظاهر. فليس يكفى اذا حاولنا أن نفقه تاريخ العرب، ونقف على سر تاريخ الرومان ونصل الى صميم تاريخ اليونان، أن نلم بتاريخ كل أمة من هذه الامم على حدة كأنها قامت فى غفلة من الدهر وبمعزل عن الامم، ولا معدى لنا اذا أردنا أن نجيد البحث ونسدد النظر عن مراقبة اتصال الحوادث العالمية وتسلسل الحركات التاريخية، والوقوف على مدى تأثير كل حضارة فى الحضارات التى تليها ومعرفة ما استمدته الحضارة من سوالف الحضارات وغابر الامم وما ابتكرته من تفكيرها الخاص، ولو أننا قصرنا النظر على تاريخ أمة بعينها لضل منا الرأى

واعتور الشطط أحكامنا وكانت مظنة المبالغة وهدف للتعصب ،
وغم علينا تفسير الكثير من أحوال المجتمع وملابساته وقوانينه
وشرائعه وسائر مقومات حضارته ومشخصات كيانه .

وعندما نرسل النظر فى التاريخ مجتمعا متلاحم الاجزاء نلمح
وحدته الحية ونرى الحضارة العامة تغذ السير متنقلة بين مختلف
الامم كالنهر المديد تمده الروافد والاخوار حتى تصب فى محيط الابد
العظيم الذى ينتهى عنده كل جهد . وندرك أن الحضارة شيء متحرك
غير مستقر بحيث لا يمكن أن نلمحها الا فى نموها المتزايد وتطورها
المستمر ولولا ذلك لاستسرت علينا مظاهر الاشياء وغابت عنا
أصولها الواشجة فى القدم . وهذه النظرة العامة للتاريخ خليقة بان
تردنا الى الحق وتوحى الينا الاعتدال فى الحكم اذ تبصرنا فى مجرى
الحوادث العام مكان الحضارة التى قد تختلج بنفوسنا الرغبة فى ايثارها
وتفخيم أمرها والتعصب لجانبها

واذا الفنا هذه النظرة واستضأنا بها فى بحوثنا التاريخية
استبانت لنا مميزات كل حضارة وخصائص كل دور من أدوارها
وتجلت لنا الفروق بين الحضارات على أتم ما يكون فى آثارها
الادبية ومظاهر حياتها الروحية . فان لكل حضارة لونا خاصا من
ألوان الادب والفن تتخذه للتعبير عن ذاتها وتصوير حياتها فتتمثل
فيه نوازع النفوس ووجهات التفكير ، وتصطلح ظروفها الخاصة

وقوتها المكنونة على تأكيد هذا اللون حتى يصبح شارتها المعروفة وميسمها الواضح ، ولكل دور من أدوارها صفته المنفردة وعقليته الممتازة ونصيبه الخاص

من أمثلة ذلك القرن التاسع عشر . فان لونه الخاص وصفته التى تفرد بها هى النزعة التاريخية . ولقد كان هذا القرن هو العصر الذهبي لدراسة التاريخ . ولقد بز فى ذلك سائر العصور وازرى بكل جهودها فى هذه السبيل . ولم يجمع عصر واحد من عصور الدنيا ماجمعه هذا القرن من عظماء المؤرخين . ولقد كان كبار كتاب هذا القرن يبدأون بالتاريخ وينتهون به ويبثون فلسفتهم الأجتماعية على الاستنباط التاريخي ويدعمون آراءهم بالشواهد التاريخية والأسانيد الأثرية . وتعددت طرائق تفسير التاريخ ، فمن مفسر له من الوجهة الروحية الى مفسر له من الناحية المادية . ومن مؤرخ شعبي النزعة إلى آخر ارستوقراطى المرمى . ومن مصور لحوادث التاريخ بارع ، الى محلل لعناصره قدير . وكان فحول الشعراء يستعيرون من صوره ويحيون شخصياته . وكان المصلحون يحثون على دراسته للوعظ والعبرة وقادة السياسة يديرون فيه النظر للحنكة والدراية . ووجه اليه الروائيون شيئاً غير قليل من مجهودهم وأفسح له الفلاسفة مكاناً ممتازاً فى فلسفتهم

وتظهر ميزة هذه النزعة التاريخية فى أبهر مجاليها عندما تقابل

حالة الحياة عند اليونان بحالة القرن التاسع عشر . فقد كانت الحياة اليونانية قائمة على تجاهل هذه النزعة واهمال شأنها . وبينما كان الانسان فى القرن التاسع عشر ، يرى أن حياته حلقة من سلسلة حياة طويلة سائرة من آلاف السنين . كان اليونانى يرى نفسه كلية تامة ووحدة مستقلة . وكان اليونانيون يضفون على الماضى ظلال الاساطير ويحيطونه بآثار من الخلود فلم يكن عجيباً عندهم أن ينتسب الاسكندر إلى دايونيزاس، ولا إن يلحق قيصر نسبته بفينوس ، فتجور منطقة الاسطورة على عالم التاريخ ويغيب الحق التاريخى فى جو الرموز والأسرار . وكان الحاضر هو مناط براعة مؤرخى اليونان وكانوا يجيدون فهمه وتصويره وكانت تنقصهم قوة مشاهدة الماضى واحياء صوره على حين ان أعظم الطرف التاريخية التى خلفها مؤرخو القرن التاسع عشر هى أشدها إمعاناً فى القدم وتغلغلا فى الماضى . ولقد كتب العبرانيون تاريخهم وملأوه بجليل الحوادث ورددوا فكرة العناية الآلهية المسيطرة على الدنيا المتصرفة فى مصائر الدول، تلك الفكرة التى تركت أعمق أثر فى الكثيرين من مؤرخى أوروبا . ونبغ من العرب مؤرخون كبار أظهروا كفاية نادرة فى جمع الحوادث واستثبات النصوص، ودل أحدهم على عبقرية فائقة فى نظراته الى الشؤون الاجتماعية . ولكن المؤرخين المتقدمين فى جماتهم على براعتهم وفضلهم كانوا ينددون

عن الصواب ويخالفون شرعة الانصاف عند مايحاولون أن يصفوا عصراً غير عصرهم، وأمة غير أمتهم . فمؤرخو اليونان كانت تنم كتاباتهم على إحتقار غريب للغير وسوء فهم لأحواله ولم يبرأ بعض مؤرخيهم من وصمة تلفيق الأكاذيب وتنميق الأساطير اكباراً لشأن أمته واستصغار لامر غيرها . وكانوا لايعيشون إلافي حاضرهم بل لم يفهموا من حاضرهم إلا ما كان تحت أعينهم وفى متناول حواسهم . وكانوا إذا حكموا على الماضى قاسوه على الحاضر . وإذا نظروا الى أمة غير أمتهم نظروا اليها فى ضوء معتقداتهم الخاصة وعايروها بمعاييرهم الأدبية وهكذا لم يملك اليونانيون ، على سمو ملكاتهم الفنية ، التصور الانتقادى للتاريخ ، وكان العبرانيون يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، ولم يكتب العرب عن غيرهم من الامم مايدل على تحرى الحقيقة وتوخى الانصاف ولهم فى ذلك ضروب من التخليط تصلح للفكاهة فى ساعات الفراغ

بل مالنا نبعد الخطو ونرجع الى التاريخ القديم وأمامنا القرن الثامن عشر.فقد كان ينقص مؤرخيه العظماء الخيال العاطف الذى يمكن المؤرخ من النفوذ الى أرواح العصور السالفة ومشاركة أهلها فى احساساتهم : وكان مؤرخوه يأخذون فكرة أن الانسان فى كل زمان ومكان هو الانسان بعينه قضية مسلمة لايأتيها الباطل

أما القرن التاسع عشر فقد برىء من أكثر هذه العيوب

ونضجت فيه الملكة التاريخية أتم نضوج وامتاز من بين سائر القرون بلطافة المدخل الى باحات النفوس وحمي السرائر واستبطان دخائل الروح واستيحاء طيوف الماضى واحياء شخصياته الكبيرة . وقد تآزر عاملان بينهما شابكة قربى على اسباغ هذه الروح على القرن التاسع عشر . العامل الاول هو الثورة الفرنسية، والعامل الثانى هو نهضة الفكر الالمانى

غيرت الثورة الفرنسية الافكار وقلبت النظم وطوت الخلف بين الامم وقربت مابين قلوبها المتباعدة ونفوسها المتناكرة . فاتصلت الافكار وامتزجت الثقافات وانداحت دوائر البحث وأقبل الناس تحدوهم العاطفة المشبوبة والهمة الناشطة يبحثون من جديد فى العلم والدين والادب والتاريخ والفلسفة وغيرها من المعارف البشرية ، وكما استطاعت الثورة فى الميدان السياسى أن تخلع نير العبودية وتهدم السلطات الغاشمة وتسترد الحرية المغصوبة والحق المهضوم ، فكذلك فى الميدان الفكرى مهدت السبيل الى التخلص من ربقة التقاليد واهدرت حرمة تلك القداسة الوهمية المضروبة حول بعض المباحث الفلسفية وأزاحت عن الصدور كابوس التعصب

وكانت يقظة الاهتمام التاريخى ثمرة من ثمرات الاهتمام الرومانتى بالحياة، لان الروح الرومانتية التى استحوذت على النفوس فى طليعة

ذلك القرن كانت مولعة بالغرائب موكلة بالاسرار، فلا غرو ان رأت فى كل عصر من عصور التاريخ مايثير طلعتها ويطلق خيالها. فالعصور الوسطى تستهويها لما حفلت به من غرائب مدهشة واقاصيص عجيبة ولما فيها من كرامات القديسين ومعجزاتهم الخارقة والقلاع المهجورة والقصور المسحورة والفرسان الامجاد وابطال الصليبيين والدولة الرومانية المقدسة وبطلها شارلمان حامى حمى النصرانية الذى نسجت حوله طائفة من الخرافات لم ترحمها معاول النقد الحديث ، والشرق يخلب لبها لانه مشرق الحضارة ومهبط الاديان الكبرى ومسرح الانبياء

لذلك اتسع نطاق الابحاث التاريخية وكثر ايفاد البعوث للتنقيب عن الآثار والالمام باحوال الامم الغابرة والحاضرة، وترجمت كتب ديانات الهند الى اللغات الأوربية وجعل الشعراء يقلدون الحلولية الهندية والصوفية الفارسية ، وعظم شأن الماضى فى نفوس الباحثين وأيقنوا أن الحاضر الراهن هو صفحة واحدة من صفحات كتاب الانسانية الضخم لايعبر عنها التعبير الوافى ولا يعطى عنها فكرة صحيحة، وعرفوا أنه لايوجد شىء غير جدير بعنايتهم مادام يصف عاطفة انسانية أو يثبت حادثة تاريخية فجمعت الملاحم وحفظت أغانى القرويين واساطير الشعوب وقصص الجان والمردة وشرع علماء اللغات يدرسونها فى نور التحقيق التاريخى، وتغير نظر

المفكرين للتاريخ فصاروا لاينظرون فيه على أنه مجموعة من الامثال صالحة لتحضير الخطب واستخراج المواعظ والعبر وجمع الشواهد للقدوة الحسنة أو للمباهاة بمجد الاجداد وغرر المفاخر، بل من حيث هو تطور عميق شامل.

وكان هناك شعب خامل طالما رماه جيرانه الاذكياء بكثافة الشعور وجمود الظل . وهو الشعب الالمانى . وكأنما دقت الساعة اذ ذاك وآن الاوان ليتولى هذا الشعب الزعامة الروحية لتلك الحركة الفكرية الباهرة وقد أحدثت الثورة فى فرنسا انقلابا سياسيا اجتماعياً وأحدثت فى انجلترا انقلابا فى الادب والشعر . أما فى المانيا فانها أحدثت نزعة فلسفية وذلك لانه من مميزات الثورة الفرنسية انها وجهت العقل الانسانى الى ناحية التجريد ولم يكن هناك شعب أكثر قابلية لمجاراة هذه النزعة الفكرية من الالمان فان لغتهم معروفة بأنها لغة تجريدية . وبفضل هذا الاستعداد وصلوا الى الافكار الكبيرة وشيدوا الابنية الفلسفية العجيبة. وكانوا يشعرون أن وراء بلاغات العصر المدرسى وزخارفه وتحاسينه ، غوراً أعمق. وأن خلف المذاهب المتباينة والاعتقادات الدينية المتعددة ، العاطفة الدينية. وان خلف القواعد والتفاعيل والاوزان ، الجمال الشعرى . وأن وراء ظواهر هذا الوجود ، سره الباطن الخفى .

ولقد كانت الحركة الفكرية فى القرن الثامن عشر من عمل

فرنسا وانكلترة . فقد رأست فرنسا الحركة الفكرية فى عهد لويز الرابع عشر . وخلفت فيها ايطاليا . ثم نازعت انكلترة فرنسا تلك السيادة الفكرية بظهور نيوتن . ولم يقطع التصادم الحربى بينهما تيار الاتصال الفكرى. وقدعد «بوكل» المؤرخ امتزاج العقل الفرنسى بالعقل الانكليزى أهم حوادث القرن الثامن عشر

أما المانيا التى أخذت تبرأ من حرب الثلاثين سنة فكانت فى سنة ١٧٠٠ فى المؤخرة وظلت كذلك حتى سنة ١٧٦٠ فكانت تلعب دورا ثانويا وتتغذى على موائد فرنسا وانكلترة الحافلة، حتى ظهر «لسنج» شيخ نقادالالمان ورأس أدبائهم ومن حين ظهوره أخذ الادب الالمانى ينهض من كبوته ويتبوأ مكانه وشرع مفكرو الالمان يكملون ما بدأه «روسو» فى فرنسا وهيوم وبرك فى انكلترة وتعلموا من روسو فكرة الحرية وتقديرها وأخذوا عن هيوم فكرة تحديد المعرفة البشرية واستمدوا من غيبون ومنتسكيو آراءهما فى التاريخ ودراسته كما استفادوا من رسالة بيرك عن الجميل والجليل

وتجمعت التيارات الفكرية كلها فى المانيا وأعان الشعر الفلسفة ونشأت نظريات فى التاريخ وفلسفته وكانت الفكرة الغالبة على هذه الحركة هى فكرة التطور التاريخى التى بدأها لسنج وأنماها هردر وجيته وبلغت نهايتها فى فلسفة هجل . وكانت هذه التصورات

الجديدة للحياة والتاريخ تتطلب افقا فكريا أوسع من الافق الذى أوجدته فردية روسو وفلسفة هيوم . ففى هذا الموقف نبغ «كانت» الذى احدث ثورة فى الفلسفة وجمعها من أطرافها ووضع أساس التفكير الفلسفى للمذاهب الجديده

وقد قال النقاد الكبير « تين » فى كتابه القيم عن تاريخ الادب الانكليزى « أخرجت المانيا بين سنة ١٧٨٠ وسنة ١٨٣٠ كل أفكار عصرنا التاريخى . وواجبنا لمدة نصف قرن — بل ربما لمدة قرن برمته — هو أن نعيد التفكير فيها » وهكذا ظهرت فى ألمانيا العبقرية الفلسفية فكانت تاج نهضتها كما ظهرت فى ايطاليا فى عصر احياء العلوم العبقرية الفنيه

ومصدر قوة الالمان هو القدرة على اكتشاف الافكار العامة ولم يبلغ أحد مرتبة الالمان فى ذلك . وهى سر كل ما بلغوا وكانت هى الملكة المسيطرة على عقلهم . وكانوا بهذه الملكة يجمعون تحت فكرة واحدة الاجزاء المنتثرة لشىء ما . ويرون وراء كل فصيلة من الفصائل الرابطة العامة التى تربطها الى بعضها وتلائم بين المتناقضات ويستحضرون الوحدة للاشياء المختلفة فى الظاهر . وهذه هي الموهبة الفلسفية التى طبعت كل مؤلفاتهم بطابعها . وبها بثوا الحياة فى البحوث الجافة وافاضوا الضوء فى مظلم المشكلات وادركوا أرواح العصور واستخلصوا قوانين التاريخ من اخلاط الفوضى وشوائب الغموض

وابتدعوا علوم اللغة والاساطير وأساليب النقد والتاريخ . وكانت كل مذاهب المانيا الفلسفية تطبيقات مختلفة لنظرية واحدة وهى نظرية الوحدة المطلقة لهذا الكون فكل مظهر من مظاهر هذا الكون جزء من كل . ولاجل أن نفهمه علينا أن نعيد بناء هذه المجموع فى الفكر . وهذا المجموع يتصل بمجموع أخر . وهذا بثالث وهكذا الى مالا نهاية حتى لايبقى شيء منفصلا فى هذا العالم وحتى تتمثل الدنيا متكونة من مظاهر لا يأخذها الحصر. ولكن هذه المظاهر تفنى وتتساقط ، وهناك قوة كامنة فى صميم الكون لا يمكن تفسيرها تجدد هذه المظاهر البالية المتكسرة وتردها الى الحياة ، ولهذه الفكرة تطبيقات لاتعد ولا تحصى

ولعل أكبر ممثلى هذه الحركة هو الفيلسوف الكبيرهجل الذى يعتبره الكثيرون من نقاد الفلسفة المكمل الحقيقى لفلسفة « كانت » وهجل رجل شديد الغموض فى فلسفته بعيد الشقة على من رامه لايغتفر لقارئه الجمود الفكرى ولا الكبرياء الاجوف ولا بد أن تأخذ له عدته قبل أن تلم بشيء من أفكاره ولا يجمل برجل حسن التثقيف أن يجهل الحركة الفلسفية من « كانت » الى هجل ، الجهل المطلق لأن من جهل ذلك فقد جهل تاريخ الحركة الفكرية العالمية . وسألم بها المامة يسيرة تناسب الايجاز الشديد الذى أتوخاه

بدأ « كانت » فلسفته بهدم فكرة أن العقل البشرى لايحوى

غير الصور التي تنطبع على لوحتــه من الخارج بطريق الحواس .
وذلك لانى عندما أشــاهد جثــة رجل قد وافاه الموت من جراء
جرح رغيب أسائل نفسى فى التو واللحظة «من قتل هذا الرجل؟»
فوظيفة الحواس هنا أنها أرتنى الجثة ولـكن سؤالى لنفسى يتضمن
البحث عن السبب . وليس هذا نتيجة التفكير والروية وانما هو
فيض العقــل وبداهة الفــكر الذى يربط الفكرة بالاحســاس .
فالامر اذن على نقيض ما كان يراه القرن الثامن عشر ، والعقل
البشرى لاتصوغه التجارب الخارجية ولا توجده الحوادث وانمـا
نحن ندرك الاشياء الخارجية لانها تأخذ شكل عقلنا وتنطبع بطابعه
وكما أن كوبر نيكس عجز فى بادىء الامر عن تفسير نظام الكواكب
لانه فرض أن الشمس والـكواكب كلها تدور حول الارض ولم
يهتد الى التفسير الصحيح الا عنــدما أدرك أن الامر على خلاف
ماقدر وأن الارض والنجوم والـكواكب تدور حول الشمس
فكذلك « كانت » بعد أن بدأ يبحث عن تفسير العقل البشرى فى
العالم الخارجى عاد فغير طريقته وثبت له أنه يجب الابتداء بفهم
العقل فى ذاته وفحص داخليته. ولما كان العالم الخارجى لا يبدوا لنا الا
فى الصورة التى تصوره بها قوانين العقل البشرى لذلك لا يمكننا أن نتعرف
القيمة الحقيقية للاشياء الخارجية الا بعد الوقوف على ماهية قوانين
العقل البشرى وانى مضطر الى ان أتصور الاشــياء فى الزمان

والمكان . لا لأن فكرة الزمان والمكان نفذت الى ذهني من الخارج بل لأنها هي نفسها قانون عقلي ولا يمكنني تقدير هذه الفكرة الابدراسة القوانين العقلية . . . . . . وبهذا الاسلوب في التفكير قضي « كانت » على فكرة ان العقل أشبه باللوحة ينطبع عليها المؤثرات واسترد العقل البشري حقوقه المضيعة ومواهبه المنكورة ولكن الجو الفكري لم يلبث ان غام وساور النفوس القلق وخيف ان يعود الشك القديم الذي لا قى كبار الفلاسفة القدماء عناء جما في ردعرامه وانقاذ النفوس من وساوسه و يستفحل أمره وتستعصى علته وذلك لان « كانت » ترك الروح البشرية كالمحبوسة ترقب العالم الخارجي من وراء قضبان الحواس واثبت أن الدنيا التي نراها هي الدنيا كما تصورها حواسنا . وهنا ظهر « فخته الفيلسوف » وقال ان الدنيا من خلق عقلنا. وأدهش مرقسامعي محاضراته بقوله في نهاية احدى محاضراته « غدا ياسادة سننتقل الى خالق الله »

في هذا الموقف العصيب وافى العالم « هجل » وفي يده عصاه السحرية التي جاء بها بالمعجزات وهي أسلوبه في المنطق المسمي المذهب الجدلي وحاول « هجل » أن يمحو التناقض بين « الانا » و « غير الانا » فقال ان الاثنين مظهر للمطلق وحاول الاهتداء الى المطلق بدراسة الروح البشرية . والمطلق هو باعث الحياة في الكون وليس هو فكرة مجردة وانما هو مصدر حقيقة النفس واللانفس .

وهو فى حالة صيرورة دائمة ولا يمكن تفسير الكون والطبيعة والتاريخ الا بالرجوع الى المطلق الذى يتراءى خلالها . وكانت فلسفة التاريخ من الاركان الاساسية فى فلسفة «هجل» لانها قائمة على المطلق الذى من شأنه أن يصير شاعرا بنفسه فى التاريخ ومن ثم أصبح للتاريخ أهمية كبرى لانه يفسر ترقى المطلق وتكشفه حينا بعد حين. وقد رحب عالم الثقافة بهذه الفلسفة كل الترحيب واعتدها حلا مقبولا لمسائل طالت معالجتها وأثرت تأثيرا بالغا فى الثقافة عامة وفى دراسة التاريخ خاصة . ولايزال أثرها باديا الى اليوم حتى فى بعض الكتاب الذين يرفضون فلسفة « هجل» ويعدونها دعوى عريضة وجرأة ممقوتة

وقد ترك « كانت » التناقض بين النفس وبين الشيء فى نفسه ، وحاول شلنج وفخت التوفيق بين الاثنين بالغاء أحد الجانبين . أما هجل فحاول أن يوفق بين الاثنين ويلائم بين عالم العقل وعالم المادة وبين الروح والطبيعة وعالم الفكر وعالم الواقع لأنه رأى أن كل هذه المتناقضات تضمها وحدة الفكر ولأن المطلق هو الشعور المدرك الذى يُرَدُّ اليه كل شىء ويجد فيه ما يبرر وجوده ويفسر معناه

ويعتقد هجل أن هذا المطلق يمكن أدراكه بالعقل ومن ثم هو خصم لدود لمذهب اللا أدرية من ناحية والمذاهب الصوفية من ناحية أخرى . والمطلق فى زعمه روح حية دافقة تنبعث منها

كل المظاهر الزائلة وتتحقق كل الصور . وأدراكه هو غرض الثقافة والفلسفة والدين والعلم

ويوجد المطلق أولا فى صورة فكرة نقية ثم يهبط عالم الطبيعة غير الشاعرة ثم يسمو الى درجة الشعور فى الانسان ويتحقق أكثر فأكثر فى النظم الاجتماعية ثم فى الفن والدين والعلم ثم يعود الى نفسه ثريا حافلا

وتقتضى وحدة الفكر أن نتصوره على أنه وحدة المتناقضات ففى الحياة الدارجة يدرك فهمنا جزءاً من الكل . وهذا الجزء بضرورة الحال ليس كاملا فى ذاته بل يدل على شيء آخر . ولسنا نصل الى الحق إلا بتأمل الجانبين . وفى ترقى الفكر تنتقل كل فكرة الى نقيضها ولا نصل الى الحق إلا عندما نعتبر الجزءين مكملاين لبعضهما البعض . ويسمى «هجل» الانتقال من أبسط الأفكار الى الافكار المركبة بطريق النفى والتناقض منطق الفكر Dialectic of thought وهذا المنطق قائم على الاقرار بالتوافق بين المتناقضات . فكل تأكيد دليل نفى وكل نفى يدل على تأكيد وهذا القانون يسير من حالة إيجابية Thesis إلى حالة سلبية Antithesis ومنها الى حالة متركبة من الأثنين أى حالة سلبية يجابية Synthesis وهكذا تترقى المتناقضات الى حالات تركيبية سمى ، وقانون المتناقضات فى المنطق الذى يقول بعدم اجتماع

النقيضين يعنو لمنطق أسمى هو منطق الحياة الذى يقول بأن الحقيقة مكونة من المتناقضات وأن الكل هو الحقيق وكل ماخلاه ظل وزائف . والحقيقة الجزئية هى محض تجريد ولا قيمة لها إلا عند ماتتصل بالكل . وكل مافى الوجود خاضع لهذه الحركة الثلاثية من أبسط الكائنات الى أسماها . فالفكرة تترقى من التجريد الذاتى البسيط الى الوحدة والدنيا تسير هذا السير . والطبيعة والتاريخ والفلسفة تمثله فالبذرة داخلها شجرة البلوط ولكن شجرة البلوط عند نمائها تنفى البذرة وتحققها معا . والطفل طيه الرجل ولكن الرجل ينفى الطفل ويؤكده معا والتاريخ يمثل ذلك فى مجال أوسع وتنتقل الحضارة فى تطورها من دور الى دور بتأثير تفاعل الميول وتباين النزعات ، فعصور السلطة تتلوها عصور الفوضى ثم ينشأ من الاثنين عصر حرية أسمى ، فالكون اذن فى نظر « هجل » تطور شامل يتراءى المطلق خلاله

هذه لمحة من تلك الفلسفة التى غمرت العالم فى أوائل القرن التاسع عشر وأثرت ايما تأثير فى نفوس كبار المفكرين وملأت الجو الفكرى بالافكار والتأملات

بين هذه التيارات الفكرية القوية والحركات الناشطة ظهر كاتبان مؤرخان بينهما وجوه كثيرة من التشابه والاختلاف وأخص صفة يشتركان فيها هي أنهما يعبران الى حد كبير عن روح عصرهما

ويمثلان نزعة القرن التاسع عشر التاريخية فى أوضح صورها ، أحد هذين الكاتبين «توماس كارليل» نشأ فى هضاب اسكتلندة وفى أشعار جيتى والفكر الالمانى . والآخر هو ارنست رينان الذى نشأ فى برارى بريطانيا وتشبع بالفكر الألمانى . وهذان المؤرخان الكبيران كلاهما مؤثر للابطال والعبقريين ساخر بالجماهير والجماعات يرى أن خلاص الدنيا هو ان يسيطر على فى أمورها فئة من العلماء الاشراف وكلاهما رزق الى حد كبير تلك الحاسة التاريخية النادرة وهى القدرة على استقراء نفسية أهل العصور السالفة والنفوذ الى مسالك خواطرهم ومضطرب أهوائهم وبفضل هذه القدرة صار الاول مؤرخ أكبر ثورة عرفتها القرون الحديثة وهى الثورة الفرنسية وصار الثانى مؤرخ أكبر انقلاب فى العصور القديمة وهو ظهور الديانة المسيحية . وكلاهما أضاف الى طبيعته السرية ومواهبه العالية التوسع فى الاطلاع والصبر على الاستقصاء فكان الاول أول من فتح أبواب بلاد الانجليز للأدب الألمانى وأول من أسمع قومه كلمات «جيتى ونختة» ونوفاليس ورختر وغيرهم من عظماء الألمان. أما الثاني فقد طاف به اطلاعه الواسع وخياله الجوال على أطلال بابل واشور وآثار العبرانيين حتى استخلص تاريخهم من نواحى الغموض وأرسل عليه أشعة لا تزول . وكان كلاهما من الحين الى الحين يعود من رحلته فى الماضى ليتناول مشكلات عصره وازماته المستحكمة فيدلى فيها بالرأى الموفق والحكم النزيه

وظهر كلاهما فى أوانه فكان نتيجة منطقية للمقدمات التى
ألمعنا اليها إذ كان البحث الألمانى قد مهد السبيل وجمع المواد وأوجد
الصيغ والمقاييس فنفخ كل منهما الحياة فى تلك المواد المكدسة
وصبها فى القالب الفنى ومنحها حرارة القلب واراق عليها ضوء العبقرية
وكان كلاهما ينظر الى التاريخ تلك النظرة الكلية فيراه دراما كبرى
تمثلها الأمم على مسرح الليل والنهار الذى تضيئه الشموس والاقمار
والنجوم الزاهرة . وكان يغلب على كليهما الاحساس الدينى والشعور
الادبى المتجه الى خوالج الضمير وخفايا النفس وكان هذا فى نفس
«كارليل» من تأثير الوراثة «البيوريتانية». أما «رينان» فقد ورث
عمق العاطفة الدينية وقوة الشعور الاخلاقى من أجداده الساتيين .
وقد نشأ فى جو مفعم بالحزن محفوف بالجلال ينمى فى الانسان
المشاعر الغامضة والاحساسات الدينية لأن هنالك فى تلك البرارى
الموحشة من مقاطعة بريطانية حيث تهدر أمواج البحر المزبدة
الطاغية، وحيث الفضاء المتجهم والسحب المتراكبة تستولى على
الانسان الكآبة ويفارقه المرح ومن ينشأ فى تلك الأرض العارية
المحاسروين كسور الصخور يتضاءل فى نفسه الشعور بالعالم الخارجي
رويداً رويداً ويستجمع كل قوته ويوجه كل فكره الى مسألة
المصير والمآل وماوراء الحياة الحاضرة. ولقد تفتحت فى نفس «رينان»
أزاهير من التفكير غامضة مثل المحيط الهادر الساخر الذى يضرب

شواطيء بريطانيا مهجورة مثل صخورها الصم الاوابد ونسم أريج تلك الازاهير فى صفحات كتبه فلطف من شكوكيته وجعانا نستعذب كلماته ونعطف على افكاره عندما يتخونها المنطق القوى والفكر السديد

هذه بعض وجوه الشبه بين هذين الرجلين الكبيرين . وهناك فروق جوهرية بينهما. قال أمرسن عن كارليل «علمه حقيقة يثقلك بالشكر. ولكن لقنه نظرية يسخر منك بل ربما كال لك الشتم » وهذا رأى كاتب كبير وناقد أديب ربطته بكارليل أواصر صدقة ظلت متينة حتى توفاهما الله.وقد أصاب فيه الحقيقة وأجمل وصف تلك الصفة العقلية التى امتاز بها «كارليل» وهي مصدر قوته وضعفه وتلك الصفة هي شدة شغفه بالحقائق الواقعة وكراهيته للنظريات أما «رينان» فلعله كان أشد كلفا بالنظريات من «كارليل» كان كارليل يجعل النظرية حقيقة ملموسة فيستخرج من الفكرة عاطفة ومن المبدأ شخصا ومن الفاسفة تاريخا بل كان يطلب الى الشعراء أن يقتصروا على التغنى بالحوادث التاريخية وبلغ به الاغراق فى ذلك أن صرح مرة بان أهمية شكسبير فى نظره هى لانه كتب رواياته التاريخية وأنه يكبره لانه يرى فيه أكفأ شاعر فى القدرة على نظم تاريخ الجزر البريطانية شعرا ! أما «رينان» فهو على نقيض ذلك اذ كان ولوعا بأن يستنبط من الواقع الملموس نظرية وأن يخرج

من التاريخ بفكرة عامة . ومن ثم ميله الى التعميمات العريضة والنظريات الشاملة . وكان عندما يزن قيمة شعب من الشعوب يجمل الفكرة التي أوجدها هذا الشعب ميزته ومقياسه، وقد تركت هذه الصفة العقلية أثرها في أسلوب «رينان» فعبثا تبحث فيه عن حرارة « كارليل» وقوته وبراعة تصويره الفائقة المنقطعة النظير في الادب الحديث وعن تلك الصور العجيبة التي لاترى لها مثيلا الا في شكسبير ، وأسلوب «رينان» رقيق ناعم الى حد الهيف واستعاراته ليست في غاية الاحكام والجلاء ، وقد أصاب الناقد القدير جيل لمتر عندما قال في مقاله الممتع الفكه عن «رينان» هو « فنان ولكن أسلوبه أقل الاساليب تصويرا» ، اما صوره التاريخية فان الكاتب لايحاول ان يبارى بها ريشة الرسام وحسبه أن يصف حياتها الداخلية ونوازعها الخفية ، وصيغ الاعتدال وتحاشى المبالغة والتأكيد كثيرة في كتاباته مما يدل على بعده عن التعصب وشدة اعتقاده بأن الحق شيء نسبي ولاتلمح في كتاباته أثر التهويل ولا تسمع صدى تلك الصرخات العالية التي جعلت جماعة من النقاد يشبهون « كارليل» بالنبي ارميا صاحب المراثي المشهوره

ولعل الفرق بين أسلوب « كارليل» وأسلوب «رينان» كالفرق بين الجلال والجمال ، فان أسلوب كارليل قوى جليل ينحدر انحدار الأتى في صخبه وأسلوب «رينان» جميل طلي ينساب في لين ورفق

كالعيون الجارية فهو اسلوب ملائم لهمسات الوحى الداخلى معبر عن لغة الضمير العاكف على نفسه يروى لنا احلامه عن الحياة والوجود ومشاعره الغامضة الخفية إزاء هذا الكون الغريب ولرينان روايات فلسفية ألبس فيها الافكار ثوب الاشخاص ولكن هذه الروايات نفسها تدل على سعة الفكر وازدحام الخواطر وتنم فى نفس الوقت على ضعف القوة التصويرية والبراعة الدراماتيكية لان هؤلاء الاشخاص ليسوا اشخاصاً من لحم ودم وانما هم اشخاص خياليون يجرى فى عروقهم أثير غير محسوس ويلمح القارىء أثر ذلك فى هذه المحاورات فان رينان لم يرسم ملامح هؤلاء الاشخاص المتحاورين ولم يصف ملابسهم ولهجتهم فى الحديث ومكان حوارهم

وقد تركت الروح العلمية التى سادت فى القرن التاسع عشر أثراً عميقا فى نفس رينان على حين كان كارليل يقاومها ويسخر برجالها وكراهة كارليل لدارون والدارونية معروفة ، وقد أثرت الروح العلمية على تصور رينان للتاريخ ورجحت فيه النظرة الكونية العلمية للاشياء على النظرة النفسيه الفنية وأفسحت السبيل لتلك السخرية الباسمة التى غابت على رينان وصارت طبعا مألوفا ملازماله حتى عندما يتناول الكتابة فى أخطر المباحث وأقدس الاشياء مما كان يثير عليه سخط ذوى القلوب الجادة الكريمة والنفوس

الصالحة الورعة اذ كان يؤلمهم ويجرح احساساتهم الشريفة أن يتناول «رينان» هذه المسائل التى كلفت الانسانية غزير الدموع وزكى الدماء وجشمتها المجهود المضنى وجرعتها مضض التضحية ومرارة الحرمان بسخرية الهازىء وابتسامة المتشكك .

وان لكل انسان نصيبه من النظرة الكونية العلمية وقسطه من النظرة النفسية الفنية وان كان يتفاوت النصيب ويختلف القسط حسب المزاج الشخصى ، وفى ملابسات الحياة حوادث شخصية تجعلنا فى بعض الاحيان نحصر تفكيرنا كله فى شخص بعينه وذلك عند ما تستولى علينا عاطفة الهيام بمحبوب أو الشوق الى صديق أو الأسف والتوجع لفقد عزيز فنوجه أفكارنا كلها الى صوبه ونرى فى عالمه الصغير مالا نراه فى العالم الكبير بل يصير اهتمامنا بذلك الشخص أشد من اهتمامنا بظواهر الطبيعة وعجائب الكون . وقد أجاد الاستاذ العقاد وصف هذه الحالة النفسية فى فى قصيدة له غزلية رائعة بقوله

وإن رياض الأرض ليست تسرنى

بشىء ولمح منك يفعم خاطري

وأحسن المتنبي وصف هذه الحالة فى قوله يرثى جدته

وما انسدت الدنيا علىّ لضيقها

ولكن طرفاً لا أراك به أعمى

وألمها الشريف الرضى؛ فى قوله يرثى صديقه أبا اسحق الصابىء

ضاقت على الأرض بعدك كلها
وتركت أضيقها على بلادى

فهذه هى النظرة النفسية فى أقصى درجاتها . وتغلب علينا النظرة الكونية فى أبسط مظاهرها عند ما نبحر فى سفينة ثم ندير الطرف حولنا فنرى السماء فى زرقتها والبحر فى امتداده وعظمته والشمس فى جلالها وفى الليل تنتثر النجوم التى لانستطيع عدّها وتزين السماء فنحس بضؤولة الانسان وتفاهة مساعيه الى جانب عظم الكون وأبديته والنظرة الفنية تغلب على المؤرخ الذى ينفق عمره ويوقف جهده للبحث عن الحقائق البشرية ويعد ثورات البشر أكبر الحوادث ويعتبر انقلابات النظم وسقوط الدول وقيام الحضارات هى كل ما فى الوجود وتغلب كذلك على المفكر الاخلاقى الذى لايفتأ يصوب الطرف ويصعده فى آفاق النفس الانسانية يستقرى حوافزها المتسربة وأوجالها الخفية أو الشاعر الذى يفيض شعوره على الأشياء . وتغلب النظرة الكونية على العالم الجيولوجى الذى ينظر فى تاريخ الانسانية فى مدى الملايين من السنين والعالم الفلكى الذى يجيل طرفه بين الكواكب التى لاتعد . وقد كان «رينان» يتردد بين النظرتين وتتوالى على نفسه الحالتان وهذا هو السر فى سخريته الباسمة لان

السخرية متوقفة على طريقة النظر الى الاشياء . فأنت اذا نظرت الى النمال من منظار مكبر لم تتمالك عن الابتسام . كذلك اذا نظرت الى الحياة البشرية من بعيد تضاءلت فى ناظرك الجهود البشرية وهانت عليك الآمال العزيزة وأشرفت على البشر اشراف جلفر الرحالة على سكان « ليايبت » ووجدت الحياة فرصة سانحة للتسلى والسخرية ومن هنا ابتسامة السخرية التى لم تبرح ثغر رينان . وهذه النظرة الكونية تطفىء الحماسة وتغرى بالاعتدال لان المتأمل يرى تنازع الارادات القوية والارادات الضعيفة وضلالات العقول ومصارع الشهوات ويرى كل جيل من أجيال الانسانية المتلاحقة يعمل لغاية غير التى ينشدها ويحقق غرضا ليس له به سابق علم . ومن هنا جاء التسامح الرينانى والاعتدال الفلسفى وعدم اطمئنان رينان لاهل الشغب والتشدد والصلابة وهذا ماحداه على أن يسخر من القديس بولس تلك السخرية الرقيقة المهذبة التى لا أملك أن أقاوم الاغراء على . . . . : كتاب « ضد المسيح »

« قضى القدر الغيور أننا فى مسائل المسائل التى تثير أشد اهتمامنا لانستطيع أن نخرج من الظل المظلم حيث تقيم الخرافه ولنكرر هنا مرة أخرى أن مسألة موت الرسولين بطرس وبولس لايفصل فيها سوى الفروض . سيما موت بولس فانه ملفوف فى الغموض . وبعض العبارات الواردة فى سفر الرؤيا المكتوب

فى آخر سنة ٦٨ أو أوائل سنة ٦٩ ميلادية تجعلنا نميل الى التفكير فى أن مؤلف هذا الكتاب كان يعتقد أن بولس كان حيا عند كتابة كتابه ومن المستحيل أن تكون خاتمة الرسول العظيم مجهولة كل الجهل وقد يكون طاح به المرض أو أهلكه الغرق أو قضى نحبه فى حادثة أخرى أثناء الرحلة الغربية المعزوة اليه فى بعض النصوص ، ولما لم يكن حوله أحد من تلامذته النابهين لذلك ستظل تفاصيل موته مجهولة وان كانت قد أتمتها الخرافه، وفى الحق أن فى فكرة الموت الغامض يمضى بالرسول الصخاب ما تستروح به نفوسنا . وبودنا أن نتصور بولس قد غلبه الشك وأدركه الغرق مهجورا قد خانه رفقاؤه واحتواه اليأس ، ويسرنا أن نعلم أن الحيرة قد عادت اليه مرة ثانيه ، وأن ارتيابنا الرقيق ليثأر لنفسه بعض الثأر لو أن أشد الرجال تشددا فى عقيدته مات مسلوب الامل على شاطىء أحد الا[illegible] أو فى أحد طرق أسبانيا وهو يقول لقد أخطأت »

ولرينان مثل سائر كبار المؤرخين وعظماء [illegible] حياة مستقرة خلف كتاباته يستشهدها فى تناول مشكلات الحياة والكون والاجتماع . وفلسفة رينان مستمدة من هجل بل هي فلسفة هجل ملطفة مصقولة منقولة من عالم الفلسفة والتجريد الى عالم الادب والفن ولكنها مقتبسة من هجل فى المعنى الذي يقال

فيه أن الدور التى نبتنيها مقتبسة من الغابات والمحاجر

وكان رينان يجمع الى فلسفته الهجلية شدة الايمان بالعلم . ولكن فكرته عن العلم لم تخل من نقص فقد كان يلحق بالعلم العلوم الطبيعية وعلوم اللغة والتاريخ وكأنما أراد القدر أن يسخر فى دوره من «رينان» الذى كان لايؤمن بفكرة خشية أن تخدعه. فقد آمن «رينان» بأن التاريخ علم وجارى فى ذلك أهل عصره وغاب عن علم «رينان» أن التاريخ ليس علما كسائر العلوم اذ ليس فى وسعنا أن تتنبأ فيه بنتائج الاشياء بطريقة غير قابلة للخطأ كما تتنبأ فى التجارب الكيميائية والعمليات الطبية ومقاييس الفلك ودورات النجوم . والفرق الجوهرى بين العلم والتاريخ هو أن العلم يرى سمات الاشياء وأشكال الموجودات . أما التاريخ فانه لا يعلق أهمية كبرى على هذه السمات إلا إذا فسرها، ونفذ الى باطنها. والتاريخ يعمل على احياء الموتى وتصوير أفكارهم وأهوائهم وهذا يقوم على الانشاء والخلق فالتاريخ من هذه الوجهة أشبه بقصيدة عامرة مادتها متعارفة وقصتها مشهورة. أو هو ملحمة حوادثها مروية وأشخاصها معلومون أما العلم الوضعى فليس هذا شأنه وانما قصاراه أن يبحث عن الروابط والصلات بين الاشياء، وهو لا يحاول أن ينفذ الى ماوراء ذلك وحسبه أن يتناول الاشياء بالمقياس والميزان، ويدير عليها التجربة والملاحظة ويطبق قانون السببية، وعندما يهتدى إلى طريقة تنسيقها فصائل

وطبقات ينفض يده وينتهى عمله ،فهو لا يبحث عن أصل الحركة ولا عما يحدث داخل الذرات على حين أن التاريخ يحاول الوصول الى دخيلة الذرات الانسانية ،ولا يكتفى بتقرير فتوحات الاسكندر وأفاعيل «أتـلا» ومواقف صلاح الدين ، وانما يحاول أن يقرأ فكرهم ويتغلغل الى صميم شعورهم . وعلى المؤرخ أن ينقل نفسه بالخيال العاطف والبديهة الموفقة مكان هؤلاء الابطال ويقف من الحياة موقفهم لينظر الاشياء بعيونهم ويحس باحساسهم وهذا جميل فى ذاته وبراعة فنية غير منكورة ولكن على شريطة ألا تموه علينا حقيقتها والا ننتزع لها الصفة العلمية غصبا ونكره العلم على قبولها اكراها وقد أحسن المسيو «بولان» فى قوله عن «رينان» فى كتاب «أدب السخرية»، «رينان الذى فهم سخرية الفضيلة لم يستوف التفكير فى سخرية العلم وربما كانت العلة فى ذلك أن فضيلة رينان أكبر من علمه »

وكان رينان يرى أن قانون العلم الاعلى هو السببية التى تنافر كل معجزة وتنكر كل شذوذ عن سنن الطبيعة .وقد أوسع هذا الاعتقاد شقة الخلاف بينه وبين رجال الدين وجعله يشتبك معهم فى جملة مواقع .ولكن رينان مع هذا الانكار ظل محتفظا بروح الدين من حيث هو الاحساس بوحدة الاشياء والايمان بالمثل الاعلى على أن الشك كان أقوى أثرا فى نفسه من أن يترك له عقيدة سليمة

وفكرة غير مزعزعة. ففكرة انكار المعجزات التى رددها فى هذه المحاورات وعدها من يقينياته الثوابت ووقف الى جانبها طويلا لم تسلم من شكه فقد كتب فى كتابه «أوراقا منثورة» يقول (ان آلاف الاعوام ليست شيئا فى لانهائية الزمن . وما نسميه زمانا متطاولا يتقاصر اذا قيس الى دهور ابعد مدى . والكيميائى عند ما يقوم بتجربة ويحدد لها سنة كاملة فانه لا يلمس جهازه فى غضونها وكل ما يحدث فى انابيقه يخضع لقوانين اللاتنبهى المطاقة ولكن هذا يتفق تمام الاتفاق مع تدخل ارادة فى مبدأ الامر وتدخل ارادة فى نهاية التجربة . وخلال هذه الفترات تتولد فى الجهاز ملايين الميكروبات ولو أن هذه الميكروبات رزقت العقل لساغ لها أن تقول بأن هذه الدنيا لا تسيطر عليها أية ارادة . وسيصدق قولها بالنسبة لدائرة تجاربها ولكنها ستخطىء من حيث النظر الى الكون فى جملته الشاملة) وكتب فى موضع آخر من نفس الكتاب «إن ما نسميه زمنا لانهائيا ربما كان فترة بين معجزتين . وهذا هو كل ما نستطيع قوله عن المحجب وراء الزائل المحدود . فليكن مذهبنا ألا ننكر شيئا ولا نؤمل شيئا وأن نؤمل فى كل شىء»

وكان رينان يذهب الى أن الانسان يرى فى أعماق نفسه صورة المثل الاعلى مرتسمة . وهذا التصور للمثل الاعلى المستقر فى صميم الانسان هو ما يسميه رينان «الله» ولكن هل الله هذا مجرد ادراك

تصوري فى العقل البشرى أم هو حقيقة أيضا ؟ رينان لا يقطع فى ذلك برأى وتراه يتردد بازاء ذلك بين لا ـ ونعم . وهو يرى أن هنالك خالقا يدخل المثل الاعلى فى الواقعى . ولكننا لا نعرف عنه شيئا أكثر من أنه كائن . فهل يوجد شىء وراء الطبيعة ؟ نعم يوجد وما الطبيعة سوى مظهر . وما الانسان الا صورة . وهنالك الابدى الذى له الدوام . كما يقول المسلمون . وهو الاب الذى خرج منه الجميع واليه يعودون والمثل الاعلى عند « رينان » هو « الفكرة » كما يتحدث عنها « هجل » فهى الروح المتطوره فى هذا الكون . ومن ثم كان الدين الحقيقى هو معرفة الدنيا وفهم الانسانية وكانت الطبيعة والتاريخ أدل على المقدس من صيغ اللاهوت وطقوس الدين

ورينان لا يمل من ترديد فكرة أن فى أعماق الكون احساسا غامضا ولكنه على ما به من غموض هو المحرك للدنيا وهو أشبه بالله « موجود بالقوة » ولكنه سيوجد « بالفعل » وفكرة الواجب قائمة على أن تنفذ مشيئته . والعمل الذى تدأب من أجله الانسانية سيتم عاجلا أو آجلا فان أمامه فسحة الابد . وسيتحقق المثل الاعلى فى النهاية وينضج الشعور العام . والافراد زائلون وليس لهم نصيب من الخلود إلا بمقدار ما أدوا من خدمات للكمال فهل نحن مخدوعون؟ نعم . ولكن هذا الخداع منطو على معنى ؛ لان الطبيعة تستغلنا لغاية تريدها وتعمل على خداعنا لتحقيق تلك الغاية . والفضيلة ذاتها ضرب

من خداع الطبيعة. والشر هو الثورة على الطبيعة ورفض أوامرها واذا أبعدنا النظر وجدنا أن خداع الطبيعة ليس خداعا مطلقا لان الدنيا متجهة الى الاحساس بنفسها أكثر فأكثر والانسان خالد في «الله» ومسألة الزمان والمكان تتلاشى في المطلق. وفي «الله» تحيا كل الارواح. وحاول رينان أن يهدىء حيرته باليقين والحب كما في قوله «أيها الاب السماوى ! لست أدرى ما الذى خبأته لنا . وهذا اليقين الذى شئت ألا تمحوه من قلوبنا هل هو عزاء ألهمت قلوبنا اياه لكى نحتمل شقوة وجودنا ؟ وهل القنوط هو الحق ، وهل الحقيقة محزنة ؟ لقد شئت الا يكون جواب جلى على هذه الشكوك حتى لا يفقد الاعتقاد فى الخير جزاءه وحتى لا تقوم الفضيلة على التقدير والحساب فبوركت فى خفائك ودمت لحفظ الحرية التامة لقلوبنا »

واذا كان الله غير ظاهر فانه سيظهر . سيظهر فى الطبيعة وفى التاريخ والعلم سيحقق الله . وسيحصل الكون بالعلم على مقدار من الشعور أتم وأشمل حيث تمتزج كل المشاعر. والعلماء هم اللذين يعينون على خلق هذا العصر . ورينان يرى قداسة العلماء ويحلم بسيادتهم المطلقة . وهذا منشأ رأيه عن الارستقراطية وحملته على الديموقراطية لان فيها القضاء على التفوق العلمى والفنى. وتصور رينان عصراً يتسلح فيه العلماء بقوة العلم ودقيق مخترعاته ويخضعون

القطيع الانسانى لامرتهم ويذيقون من يخرج عليهم النكال ويصلونه النار الحامية . وعلى الانسان ألا يتريث فى أن يضحى بنفسه اذا علم ان فى هذه التضحية خيراً للعلم ونفعا للاجيال المقبلة .

وهذه الافكار وأمثالها من فلسفة هجل فى الاسلوب الرينانى على أن رينان لم يقل هذه الافكار باهجة الواثق لأن الشك كان عنده فريضة ادبيه وحلية فنية ، وكان يناقض نفسه من الحين الى الحين ، ويتردد بين نعم ولا ، ويوقف فيوض القلب باحكام العقل ، ويلطف الحماسة بالسخرية ، ويرى أنه ربما لا يكون هنالك شئ بعد كل ذلك ، وهذا هو السر فى ان رينان كان يدخل الفكاهة فى مواطن الجد ، ويمزج الفلسفة بالادب . وحرص رينان على ان يجتذب الجمهور ويترضاه فاستزاد من السخرية والفكاهة واستكثر من الالاعيب اللفظية ليروع ويعجب ويفتن ويخلب ويرقص على كل حبل ويتغنى بكل لحن . ورينان على تناقضه وشكه حافل بالافكار مزدحم النفس بالاحساسات ولكنه لا يتخذ فى تفكيره خطة واضحة ولا يلون أفكاره بلون حاد ، وانما ينفلت بين خفى الظلال ومبهم الالوان

وتأثر رينان بفلسفة هجل والتزامه هذا الموقف الفكرى مالا به الى نزعة فكرية من النزعات التى اشتهرت فى القرن التاسع عشر «وهى الدلتانتزم » وخطة انصار هذا المذهب هي رفض الاستمساك بالافكار وتجنب الاستعماق فى فهم الاشياء وانما

مطلب صاحب هذا المذهب هو المتعة والتسلى ، فهو لا يعادى مذهبا من المذاهب ولا تضيق أخلاقه بخطة من الخطط ، بل هو يعطف على كل شيء من بعيد عطفا افلا طونيا لانه يعتقد ان لكل شيء مايبرر وجوده فى هذا الكون الذى تجتمع فيه المتناقضات فهو يسلم بكل المعتقدات والمذاهب لا على انها حقائق بل لأنها تعبر عن حالات للروح يستطيع ان يتذوقها ويستمتع بها وقد كان رينان يرى فى نفس سخافات « نيرون » متعة للاستطلاع ومنفذا للفكاهة والتسلى . وليس هذا الموقف فى وسع كل انسان لأنه يستلزم الشك المصفى والفن المهذب وهو نتيجة لازمة للحركة الرومانتية لان الوقوف على أفكار الامم فى مختلف العصور وتأمل احلام الكون التى صاغتها أخيلة الشعوب مما يؤدى الى هذا الموقف، وقد كانت نفس رينان مسرحا لهذه النزعة ولم تخل الروح الدينية المستقرة فى اعماق رينان من أثرها فى تكييف هذه النزعة اذ جعلت رينان يميل الى دراسة الاديان فركع خياله ساجدا فى مواقف جمة واستنشق جملة مباخر وكرر توسلات مختلفة وصلوات متباينة وألم بافراح الاديان ومسراتها وشجونها واحزانها وآب من هذه الرحلة يبشر بالتسامح والاعتدال ويدعو الى المصافاة بين الاديان ؛ ويرى ان محاولة اقتلاع أصول دين من الاديان معناها القضاء على سائر الاديان

وقد قضى رينان حياة طاهرة نقية أشبه بحياة القديسين

الأبرار ؛ ولم يرد على أحد من شاتميه ومنتقصي فضله ، ولم يتملق أمته فلم ينغمس فى اطراء فرنسا ، ذلك الاطراء الاجوف الذى أولع به بعض الكتاب الفرنسيين . وبعد الحرب السبعينية وهزيمتها لم يضع وقته فى اراقة الدموع وندب الحظ والحض على الانتقام بل عمد الى شرح حقيقة الموقف لامته وتبصيرها الاخطاء التى جرت عليها الويلات . وكان يكره الجدل فى محادثته كما يكرهه فى كتاباته ويميل الى الاتفاق مع محادثه وتجنب المعارضة ويرى مهزلة الحياة بقلب عاطف ولكنه لا يأخذها مأخذ الجد ولذا عاب على بطله « مرقس اورلياس » صرامته وسخر بالرسول « بولس » لفرط تعصبه . وكانت رحلته الدنيوية سعيدة مكللة بالنجاح أزاهيرها المتفاوحة أكثر من أشواكها الدامية ؛ وقد أحبته النساء الثلاث اللواتى يهم الانسان حبهن وهن شقيقته وزوجته وابنته . وقد لاقى منيته فى هدوء جدير بحكيم مثله فكان يقول فى ساعته الاخيرة « ان الموت هو قانون الطبيعة فلنخضع له صابرين » وقد روى عنه (ادمون دى جونكور) فى يومياته حادثة لاتخلو من تصوير صادق لاخلاقه وقدحاول رينان أن يشكك فيها ولكن ما عرف عن ادمون دى جونكور من الامانة فى الرواية وتحرى الدقة فى التصوير يجعلنا نصدقه ونبسط العذر لرينان لاضطراره الى التشكيك فى الرواية وسأنقلها هنا

موجزة تجافيا عن الاطالة قال دى جونكور « ذهبت لتناول الغداء فى « البربانت» يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٧٠ فرأيت رينان على المائدة الكبرى فى القاعة الحمراء يطالع فى صحيفة ويشير اشارات بذراعيه تدل على اليأس . وجاء سنت فكتور ونفتزر ودى مسنيل وبرتلو . وغيرهم وجلسنا جميعاً نتناول الغداء وجرى بنا الحديث الى ذكر الهزيمه الكبرى والعجز عن المقاومة وعدم كفاية رجال الدفاع الوطنى ولعنا الهمجية البروسية فقال أحد الحاضرين « أن الاسلحة التى تستلزم دقة فى الأستعمال لاتلائم مزاج الفرنسيين . وجنودنا يميلون الى اطلاق النار بسرعة ثم اشهار الحراب عقب ذلك واذا أردتهم على غير هذا التووا فى يدك وشلت حركتهم فجعل الفرد آلة لا يصلح لهم على حين إنه سر تفوق البروسيين »

فرفع « رينان » رأسه من الطبق وانفجر قائلا « فى كل شىء درسته هالنى تفوق الذكاء والجهد الالمانى . فليس غريباً تفوقهم فى فن الحرب الذى هو على ضعته فن معقد . نعم ياسادة أن الالمان شعب راق »

فصحنا به من جميع النواحي فجعل يقول وقد ازداد تحمسه «نعم أن الالمان أرقى منا بكثير لأن الكاثولكية تعطل المدارك وتوقف تقدم العقل على حين أن البروتستانتية تنمي القوى وتشحذ المدارك».

ثم حول « برتلو » الحديث الى موضوع آخر ولـكن رينان ظل مسترسلا فى شرح نظريته لجيرانه وحشد البراهين على صحتها فاعترضه دى مسنل بهذه الملحوظة ،« أما من جهة الشعور بالاستقلال عند مزارعي الالمان فانا أستطيع أن أقول لك إننى كنت اركلهم ليجمعوا لى الحيوانات المصادة عند تجولى للصيد فى برلين» .

فقال رينان « إنى أوثر المزارعين الذين يركلهم الانسان على هؤلاء المزارعين الذين جعلهم حق التصويت العام سادة لنا » ·

وشرع « برتلو » يشرح لنا نبوءاته غير السارة ؛ وعند ما أنهى شرحه قلت « إذن قضى علينا ولم يبق لنا إلا أن نعد جيلا للانتقام وهنا صاح بى رينان ونهض من مقعده وقد أحمر وجهه » لا لا لا تقل الانتقام . فلتهلك فرنسا ولتهلك بلادنا ، فأن هناك شيئاً أسمى من الوطن ، وهو « الواجب والعقل» وأخذ يتلو آيات من الـكتاب المقدس بصوت جد مرتفع .

بقيت مسألة لا أحب ان أختم الـكلام عن رينان دون الاشارة اليها وهى مسألة علاقته بالساميين ،وكانت بعض فروع هذه المسألة، ثارا للخلاف وبابا لجملة من الحملات السخيفة الهوجاء التى برع فيها بعض المعاصرين ولـكن الذى يعرف صراحة رينان وسمو فلسفته لا تغضبه الآراء التى غض بها من فضل الساميين ووصفهم فيها بما لم يحبوا أن يوصفوا به. وليس من الانصاف فى الـكثير ولا فى القليل أن نطلب

الى كل باحث نزيه أن يتملق مشـاعرنا ويترضى زهونا وستبقى أراء رينان قائمة حتى يمحصها ناقد من طراز رينان فى غزارة العلم وقوة الفـكر والتضلع من الفلسفة فيثبتها أو ينفيها . وقد حلل رينان العقلية السامية فى كتاب يعد ذخيرة من ذخائر الادب وطرفة من طرف البحث ويجدر بقراء الادب العربى دراسته واقتناؤه . وأن الثناء لقليل على المجهود الـكبير الذى بذله فقيد الادب والصحافة المرحوم فرح أنطون فى نشر الفلسفة الرينانية فى ربوع الشرق .

المحاورات الفلسفية

الاهداء

— الى المسيو مرسلان برتلو —

ساءلت نفسي غير مرة حيال أفكار معينة فى هذه الصفحات كنا تتجاذت عنها الحديث سويا آلاف المرات أهي أفكارى أم أفكارك . فقدت امتزجت أفكارنا فى الثلاثين سنة الاخيرة وتأكدت علاقتنا الفكرية الصميمة حتى صار من الصعب على أن أميز أفكارى من أفكارك . بل ما أشبه محاولة ذلك بمحاولة تقسيم أعضاء الطفل بين الام والاب . ففي بعض الأوقات كانت جرثومة الفكرة لك ، وكانت تنميتها من عملي وفى وقت آخر كانت الجرثومة لى ولكنك أنت الذى جعلتها مثمرة . فكل شيء صالح استطعت أن أقوله عن الكون فى كليته الشاملة أطلب اعتبارك لك. وأنا من ناحية أخرى أدعى لى جانبا فى تكوين روحك الفلسفية ولا أطلب أكثر من ذلك .

كنت فى الثامنة عشرة وكان عمرى اثنين وعشرين سنة عند ما بدأنا نفكر معا وكنا حينذاك ما نحن عليه اليوم وشبوبيتنا الجادة التى عنت لها آمال سرعان ما خابت تلتها أعوام النضوج المفعمة بالاحزان . فرأينا فرنسا ترتكس فى حمأة الضعة والحماقة والجهالة عقابا لها على اخطاء لم ترتكبها . وجيلنا الذى خدعه أولاده الاكبر منا سنا

له الحق فى الشكوى . وكل جيل مدين للجيل التالى بالنظام الاجتماعى المؤسس الذى ورثه عن الاجيال السابقة ، وهؤلاء الذين كان عليهم أن يورثونا وطنا حرا بعد أن أحدثوا انفجار فبراير القاتل مهدوا السبيل على الرغم منا لكارثة ديسمبر وعند ما وطنا نفوسنا على أن تتبع فرنسا فى الطريق الذى انساقت فيه هوى كل شىء من جديد وأرغمنا على الانتظار خمس سنوات قبل أن يروق الساسة المتنفجين الذين جروا علينا الويلات أن يعترفوا بعجزهم

فهل نرى أياما أحسن ؟ وهل تكون شيخوختنا مثل أواخر أيام الشاعر العبرانى الذى جمع فى سرور ، الحصاد الذى زرعه بدموعه ؟ أنت ترجو ذلك وأتمنى أن تكون على صواب ! لقد ارتكبت أخطاء كثيرة حتى لم تبق أخطاء لترتكب . وإذا كانت فرنسا تنوى أن تستأنف لعب دورها الشريف فى العطف والحرية واحترام الجميع فان العالم سيحبها وستكون هزيمتها أنفس من أشد الانتصارات تألقا إذا ضربت للعالم مثل الأمة الحكيمة بلا قادة ، والذكية بلا سادة . وبأى سرور وارتياح . اذن أمحو كل تنبؤاتى المحزنة ! وكم سأكون مسرورا فى الرجوع عنها ! وأرى فى نفس الوقت أن عملنا هين . لنضاعف مجهودنا ، وأنا أشعر فى نفسى بشىء من مرونة الشباب وحدته . وأريد أن أبدأ شيئاً من جديد . ولا بد أن يكون المسيو « هيجو » ومدام « ساند » قد

أقنعا الدنيا بان العبقرية لاتعرف الشيخوخة . ويجب أن يرغم
تين وأبوت وفلو بير الناقد على التسليم بان أحسن ما كتبوا حتى
الآن لم يكن سوى مجرد محاولات . ويجب أن يكتشف
كلود برنارد و بابيانى بعد أسراراً جديدة عن الحياة ، وأنت
نفسك يجب أن تبده الناس بتركيب جديد . وعليك أن تجدد
الهجوم على الجوهر الفرد لترى هل هو غير قابل للعدم كما يقولون
يجب على كل منا أن يفوق نفسه حتى يقال عنا إن الفرنسيين
لايزالون أبناء آبائهم . ومنذ ثمانين سنة خلال حكم الارهاب كتب
كوندورسيه كتابه مختصر تقدم العقل البشرى وهو فى مخبأه فى
شارع سرفا ندونى ينتظر الموت

مقدمة المؤلف

المحاورات التى تكون الجزء الأهم من هذا الكتاب[1] كتبت فى فرساى أثناء شهر مايو سنة ١٨٧١ وكنت برحت باريس آخر أبريل وقد جرحت قلبى الضلالات التى شاهدتها هنالك واقتنعت بانه ليس فى مستطاعى أن أقوم بأية خدمة للعقل . ولما كنت محروما من كتبي مشردا عن مجال عملى قضيت ساعات هذا الفراغ الذى أكرهت عليه فى الانثناء الى نفسى وتدبيج موجز لاعتقاداتى الفلسفية وبدا لى أن كتابتها على شكل محاورات أوفى بالغرض لخلوها من الجزم ولأنها تسمح للانسان بان يتناول الوجوه المختلفة للمسألة دون أن تضطره الى الانتهاء الى نتيجة ، وأنا الآن أقل مما كنت فى كل أدوار حياتى شعوراً بالجرأة على الكلام بلهجة الواثق فى هذه المسائل، والقطع الثلاث التى أقدمها هنا للجمهور غايتها تصوير سلسلة من الافكار قد تطورت تطورا منطقيا دون أن ترمى الى أن تقرر فى الذهن رأيا خاصاً ولا أن تبشر بمعتقد معين ، والمسائل التى تناولتها هى من تلك المسائل التى لا يفتأ الانسان يفكر فيها حتى وهو يعرف حق المعرفة بأنها لا تحل أبداً . والغرض

(١) الكتاب الأصلى يشمل هذه المحاورات وشذرات أخرى في الفلسفة وقد اختصرت على ترجمة المحاورات « المعرب »

الذى قصدت اليه هو حفز القارئ على التفكير وإثارة الحاسة الفلسفية فيه فى بعض الأوقات بمبالغات خاصة . ولا يتطلب مجد الانسان أن يجاوب على هذه المسائل إجابة قاطعة ، وانما يستلزم أن لا يكون غير مكترث بها . ولم يمنح أحد القدرة على سبر أعماق الهاوية ،ولكن العقل الذى لا يهفو به الاغراء الى أن يلقى ببصره من الحين الى الحين صوب أعماقها، عقل قريب الغور ضحضاح

وإنى قبل أن أؤمل أن تفهم هـذه الملاحظات على وجهها لاعلم علما ليس بالظن، سوء التأويل الذى يستهدف له الانسـان عندما يتناول المسائل الفلسفية والدينية .وإنى مستسلم مقدما الى أن الناس ستنسب الي مباشرة الآراء التى يصرح بها المتحاورون حتى عندما يناقض بعض هذه الآراء البعض الآخر . وانما أكتب للأذكياء والمستنيرين . وهؤلاء سيسلمون التسليم كله بأننى لا صلة لى بأشخاصى . وأنه لا يجب أن تلقى على مسئوليـة الآراء التى يبسطونها وكل واحد من هؤلاء الاشخاص يمثل فى درجات متفاوتة من التأكد والاحتمال والتوهم أوجه الفكر الحر المتتالية . وليس أحد منهم اسمـا مستعارا قد اخترته ليعبر عن عواطفي جريا على الطريقة التى يسير عليها كتاب المحاورات

ولسبب أقوى أعارض ضد التأويل الذى يريد أن يرى تحت هذه الاسماء الموضوعة فلاسفة أو علماء من المعاصرين .والمتحاورون

فى هذه المحاورات هم محض تجريدات. وهم يمثلون مواقف فكرية موجودة أو ممكنة لا أشخاصاً حقيقيين وليست هذه مثل المحادثات التى أولع القدماء بتصور وقوعها بين أشخاص من الموتى أو من الأحياء وإنما هي محاورات هادئة اعتادت أن تتجه اليها أفكارى عندما كنت أرخى لها العنان لتسرح طليقة حرة. ولقد انقضى عصر المذاهب المطلقة فهل يقال إذن أن الانسان قد كف عن البحث وراء نتيجة منطقية فى حلقة حوادث الكون ؟ لا . وإنما قديماً كان لكل إنسان مذهبه الفلسفي . كان من أجل هـذا المذهب يحيي ويموت . أما الآن فنحن ننتقل على التوالى بكل المذاهب . بل نفعل ماهو خير من ذلك ، إذ نستوعبها جميعها مرة واحدة.

وعندما أعدت القراءة بعد انقضاء خمس سنوات فى هذه التأثرات التى قامت بنفسى فى أوقات محزنة وجدتها حزينة مُرّة. وتريثت أول الامر فى طبعها . ولقد عانيت من عصر الشدة الذى مرّ بنا كابوساً . وكان على الانسان اذا أراد أن يعبـد الله فى ذلك الوقت أن يرسل النظر الى أقصى الابعاد أو أن يصعده كل مصعد. وكان الله الصالح هو الآله المغلوب على أمره. وعبثاً استغاث به الناس. كنا لانرى منه سوى (آله الجيوش) الذى لا يلين ولا يتأثر الا برقة آداب فرسان الالمان، ولا يهزه سـوى تفوق القنابل البروسية غير المنكور .وكنت قد فقدت رؤية الآله الارق الذى التقيت به

منذ خمس عشرة سنة فى طريق الى الجليل وتحدثت معه أثناء الطريق أحاديث عذبة مروحة[١] . ولقد قالت لى سيدة نابهة كنت أعرتها الاصول (لا تقدم هذه الاوراق للطبع فهى ترمى القلوب بحاصب من الثلج)

وقد زاد فى مخاوفى الموقف السياسى الذى جرت اليه الحوادث فرنسا . لأنه لاجل أن تفكر حرا يجب أن تكون متأكداً كل التأكد من أن ماتقدمه للطبع لايجر الى سابقة . وفى الحكومة التى يهيمن على شؤونها ملك فى يده أزمة القوة المسلحة يكون للانسان ضمانة أوفى إذ يعرف الانسان أن المجتمع فى صيانة من أخطاء نفسه، أما عندما يكون المجتمع غير معتمد الا على نفسه فإننا يملكنا الخوف إذ نخشى ان يهز التنفس القوى البنيان المتداعى الذى يحتمي به الناس. والمجتمع المتمركزة قوة دفاعه فى نفسه، عليه احتياطات ليراعيها أكثر من المجتمع المسلح من الخارج ،ومن ثم كانت الجمهوريات — ولو أنها فى الغالب أكثر ملاءمة لحرية الفكر من الحكومات الملكية — مضرة بحرية الفكر من طريق غير مباشر لشدة الحيطة التى يلجأ اليها الفيلسوف خشية أن يسيء ذوو العقول الضيقة فهم مقاصده

وبعد أن روأت فى الامر واستنصحت ذوى الرأى وحذفت بعض الافكار الشاذة، عقدت العزم على أن أقدم للقراء الالباء هذه

---

(١) الم تتقد قلوبنا داخلنا عند ما كان يجاذبنا الحديث.

الصفحات المكتوبة لهم . أما الذين لم يتعودوا معالجة مثل هـذه الافكار فلا بأس عليهم من مثل هذه السبحات وسيرونها خلوا من المعنى . اما هؤلاء الذين تعودوا البحوث الفلسفية فانهم سرعان مايعرفون إن غرضي الوحيد كان اثارة التفكير فى هذه المسائل التى لايمكن أن نمر بهاسكوتا دون أن نسيء الى الحق ، وحرصى على أن أكون واضحا وأن أبث فى أفكارى قوة وأزيدها حدة كان يحملنى فى بعض الاوقات ألجأ الى طريقة مشابهة للطريقة التى اتبعها «جان بول رختر» فى القطعة المشهورة حيث أراد أن يثير فى النفس استفظاع الالحاد بجعل المسيح يبشر به. والوسيلة الصادقة الفعل فى اظهار أهمية فكرة هى ان نلغى هذه الفكرة ونرى ماذا تصير اليه الدنيا بدونها . وآمل ان اطبق يوما باستفاضة وتوسع هذه الطريقة فى الشرح الفلسفي فى كتاب اسميه «فروض» ارسم فيه سبعة او ثمانيـة مذاهب للدنيا ينقص كل منها عامل رئيسى. وبهذه الوسيلة يصير الدور الذى يلعبه هذا العامل فى نظام الاشياء واضحا جليا بحيث تدركه اضعف البصائر

والاكثرية الكبرى من الناس ينقسمون تلقاء هذه المسائل الى قسمين . ويظهر لى ان الحق على مسافة متساوية من كليهما، ويقول الارثوذكس من كل الطوائف « إن ماتبحث عنه، وجود منذ زمان طويل » اما العالم الاثباتى (وهو وحـده موضع الخطر) والحاكم

السياسى والملحد فيقولون « إن ما تبحث عنه لا يمكن وجوده. »
حقيقة أنه لا يمكن أن يعرف الانسان صيغة اللانهائى الحي. ولكنه أيضا لا يستطيع إنسان أن يقنع الانسانية بأنه لافائدة من النزوع إلى معرفة الكل التى هى جزء منه، والذى يسوقها على الرغم منها. ونحن نعرف غزارة تلك الصور البديعة التى حاول فيها رافائيل على قباب لوحيا، وميشيل انجلو على سقوف كنيسة سيستينو، أن يصورا بدء الخليقة، ولكن من الذى لا يشوقه وجودها ؟ والفلسفة تابعة لليوم والساعة، فقد تكون محاولة حمقاء تافهة سخيفة، وقد تكون الشىء الجدى الوحيد . ومن خطل الرأى أن يكب عليها الانسان كل الاكباب إذ يستفرغ جهده وراء شىء لا ينى ينصل منه. وكذلك لا ينبغى للانسان أن يعرض عنها إذ يدل بذلك على عامية العاطفة وقلة سماحة العقل. وللكون غاية مثالية وهو يخدم غرضا مقدسا، وليس الكون محض تفاعل بغير جدوى خاتمته النهائية لاشيء ، وإن غاية الانسانية هى أن يسود العقل، والعمل على نصرته هو واجب الانسانيه. وعبثا تحاول ردها عن هذه المقاصد الساميه. وعندما تخرج الانسانية من حظيرة الادراك المادى الضيق ستغتنم فرصة هذه الحرية لتركب رأسها وتثبت بذلك ان اللذة الوضيعة لا تشفى عليلها

ومن ثم كان كل تفكير ينقل الانسان خارج دائرة الأثرة المحصورة، مفيدا وصالحا للعقل، مهما كانت الوجهة التى ينتحيها هذا

التفكير . وإن تجديف ذوى العقول الكبيرة لأحب إلى الله من توسلات العامى الجلف المغرضة . لان التجديف وإن كان يدل على نظر الى الاشياء ناقص، هو من بعض الوجوه معارضة عادلة. في حين أن الانانية ليس فيها مثقال ذرة من الحق . وهناك ملاحظة واحدة هامة ويجب أن أصر عليها . وهى أن هذه التفكيرات ليس لها تطبيق عملي وهى فى كل الاحوال مثل الشك النظرى عند «ديكارت» تفترض وجود قوانين سابقة يأخذ بها الناس أنفسهم وخير ضمين لها الطبيعة الخيّرة . وان حلاوة الشمائل وحسن النية للجميع واحترام الكل وحب الناس والحدب عليهم والعطف العام الشامل والتودد لكل المخلوقات لهى القانون الاكيد الراسخ الذى لايخدع. فكيف تأتلف مثل هذه المشاعر مع سيادة الطبيعة الشديدة الوطأة، والاعتقاد بسلطان العقل المطلق ؟ لست أدرى ، ولكن هذا أمر قليل الاهمية ، والخير لايقوم على نظرية ونحن نستطيع أن نحب الناس مع استمساكنا بفلسفة ارستقراطية . وقد لانضمر لهم الحب ونحن نباهى بمبادىء الديموقراطيـة . واذا تعمقنا فى النظر وجدنا أنه ليست المساواة هى الخالقـة لحلاوة الشمائل وعذوبة الأخلاق. بل إن المساواة الحاسدة — على الضد من ذلك — هى التى توجد الزهد والغلظة . وإن أحسن قاعدة للاصلاح هى التسليم بنظام مشمول بالعناية لكل شىء فيه مكانه وطبقته ونفعه وضرره

معا . وليست الناس متساوية. وليست الشعوب متساوية. فالزنجى مثلا خلق ليخدم الاشياء العظيمة التي يريدها الابيض ويتصورها ولا يتبع ذلك أن العبودية المرزولة فى أمريكا كانت حقا . فليست الناس كلها لها حقوق فحسب · بل ان الكائنات قاطبة لها حقوق . وأحط طبقات الانسان أرق من الحيوان بكثير . وعلينا واجبات حيال الحيوان . وليس يكفى أن لانسىء الى أى كائن بل يجب أن نعمل لخيرهم وأن نذللهم ونواسيهم ونهون عليهم جفوة الطبيعة التي لامناص منها . ومادمنا واثقين من هذه المبادىء فلنسترسل فى دعة وترفق مع أحلامنا الشريرة . ولنقدمها للطبع مادام من أسلم نفسه للجمهور مدينا له بكل جوانب فكره . وإذا أحزنت هذه الافكار أحدا فليس علينا سوى أن نقول له قاله الخورى الصالح لسامعيه لما أسال عبراتهم وهو يعظهم عن «الهوى » يا «أولادى» لاتفرطوا فى البكاء الى هذا الحد . لقد كان ذلك منذ زمن بعيد . « وربما لم يكن صحيحا »

والفكاهة الطلية تصلح كل فلسفة . ولست أعرف فاسفة فرحة، ولكن الطبيعة أبدا فى ريعان الشباب ولا تفترعن الابتسام الينا . ولا تضيق بها المذاهب بل هى تخرج من أشد المآزق حروجة، وعند أول وهلة ترى أن الانسانية فى عصرنا قد انساقت فى طريق لامخرج منه . فان المعتقدات القديمة التي لابس الانسان فى ظلها

الفضائل قد تصدعت جوانبها، ولم يحل محلها شىء، ويكفينا نحن ذوى العقول المثقفه ماتوجده المثالية مكان هذه المعتقدات. لاننا لانزال نعمل تحت تأثير العادات القديمة. ونحن نشبه الحيوانات التى ينتزع منها علماء وظائف الاعضاء الذهن وتبقى برغم ذلك تؤدى وظائف خاصة حيوية بمجرد قوة العادة. ولكن هذه الحركات الغريزية يعتريها الوهن على مر الزمن. وسيرى الكثيرون إن عملنا الخير لنرضى به الله — اذا كان موجودا — صيغة خالية من المعنى. ونحن نعيش على خيال الخيال فعلى ماذا يعيش بعدنا الناس؛ شىء وحيد لايتسرب اليه الشك وهو أن الانسانية تستمد من القلب كل مايعوزها لصياغة الاحلام ونسج الاوهام لتقوم بواجبها وتتم ماقسم لها. ولم يخذلها ذلك فى الماضى. وهى لاتفشل فيه فى المستقبل.

وأخشى فى بعض الأوقات أن يلومنى الناس لأنى قد استسلمت للهو الفراغ الاثيم لاسترسالى مع أوهام لاضرر منها، على حين كانت بلادى تعانى أشد محنة قاستها. وأجاوب على ذلك بما أجبت به من قبل غير مرة. وهو أننى كنت على الدوام طوع أمر أمتى: ففى سنة ١٨٦٩ لما دعانى عدد كثير من الناخبين لارشح نفسى لعضوية مجلس النواب قمت تلبية لهذه الدعوة بتضحيات شخصية كثيرة. وكان الشىء الوحيد الذى لم أستطع أن أقهر نفسى عليه هو أن أقول

كلمة أكثر أو أقل مما أعتقد أنه لائق بأن يقال . ومنذ ذلك الوقت كررت أنني لايسعني الا النزول على إرادة مواطنى فى كل المهمات التى يريدون اناطتها بى . وكل شفاعة فى مثل هذه الحالات أعتبرها فى غير محلها ، والمسئوليات السياسية فى مثل هذه الاوقات المضطربة لايجب أن يسعي وراءها ولا أن ترفض . فالذين يجرون وراءها حمقى خفاف الاحلام ، والذين يرفضونها مؤثرين الراحة والابتعاد عن أخطارها يجب ان نعتبرهم أنانيين ، وأنا هنا أرفع الصوت بانه لو كانت بلادى قد وكلت الي واجبا من الواجبات لكنت قمت به بكل شجاعة ، ولكنت استنفدت فيه كل ما أوتيت من همة وقدرة على العمل

المحاورة الاولى

مؤكدات

فيلاليت — اتيفرون — ايدوكس

اتيفرون وايدوكس وفيلاليت ثلاثة فلاسفة من المدرسة التى مبادئها الاساسية عبادة المثل الاعلى ، وإنكار مافوق الطبيعة، والتزام الاستخبار التجريبى للواقع . وقد برحوا باريس فى غرة شهر مايو سنة ١٨٧١ وجعلوا يتمشون فى ناحية منعزلة من حديقة فرساى وقد بهظهم الحزن لماحل بديارهم من حيف الحوادث وتحامل النكبات. وكان ايدوكس يحمل معه نسخة من كتاب « محادثات فيما بعد الطبيعة » لمابرانش . ثم جلسوا وشرع ايدوكس يقرأ فى المقالة الثالثة عشر :

« ما أجمل وأجل فكرة العناية الالهية التى أخذتها عنك ياتيودور ! وما أخصبها وأكثر نورها ! وما أصلحها لكم أفواه الفئة السادرة وحزب المنابذين للدين ! ولست أعرف مبدأ مايتضمن نتائج أجدى صفقة على الدين والاخلاق منها . أى ضوء تسكب وأى مشكلات تحسم !! وليس ثمة من مظهر من المظاهر التى يناقض بعضها بعضا فى نظام الطبيعة وتدبير العناية يدل على أن هناك تناقضاً فى السبب الذى أنتجه . بل هى على النقيض براهين

كثيرة جلية على أحكام تصرفه ، والشرور التى تحيق بنا وكل مايعترض سبيلنا من أسباب التخبط والتشويش يتفق اتفاقا تاما مع حكمة المهيمن وصلاحه وعدالته ، وإن صنع الله ليتم بطرق تحمل طابع صفاته . وإنى لمكبر لسير العناية التى تحوطنا ذلك ، السير المبدع الفائق »

«تيودور — إنى أتلمح من كلامك إنك يا ارست قد أحسنت الاصغاء الى الفكرة التى شرحتها لك وتقبلتها ، إذ لا تزال متأثرا بها الى الآن . ولكن هل وسعتها فهما وأحطت بدقائقها خبرا ؟ لا يزال يخامرنى فى ذلك الشك . ومن الصعب علىّ الاعتقاد بان وقتا قصيرا كهذا كافيا لك لتكون قد تعمقت فى درسها وفهمتها على الوجه الصحيح . ورجائى أن تبسط لنا بعض تفكيراتك لأتخلص من الشكوك وأشعر بالاقتناع . وأنه كلما كانت الفكرة أجزل نفعا وأوفر ثمرة ، تفاقم الخطر الناجم من عدم فهمها فهما واضحا تاما .»

«ارستس — أوافقك ياتيودور على ذلك . ولكن ماشرحته لنا واضح المعالم والنهج الذى جريت عليه فى الابانة عن العناية يتكافأ كل التكافىء مع فكرة الموجود الذى لا تحد عظمته ، ومع كل ما تلحظه حولنا من الاحداث ، حتى إنى لاشعر تأكدى من صدقها .

ايدوكس

ينقص تلك الفلسفه شيء قليل جدا فى بعض الاوقات ليحملنا على قبولها قبولا كاملا . وإن فكرة مابرانش القائلة « بأن الله لايعمل بمشيئات خاصة » يمكن قبولها بارتياح واعتبارها محصولا نهائيا لفكرتنا عن العدالة الإلهية »

فيلاليت

من المؤكد أن معرفة مابرانش للعالم لم تكن تامة إذا قيست الى ما أمكننا الوصول اليه . ولكنه تمكن مع ذلك من أن يخرج منها بنتائج حكيمة

اتيفرون

اذا أمسكت عن الكلام فى طائفة متناقضاته التى أعفيه من اللوم فيها لتقديرى أحوال عصره وفقدان ذلك العصر روح الاعتدال ولعلى بما سببه له مركزه الدينى من الارتباك ، فانى لا يمكننى الموافقة بلامعارضة على أفكار عن العالم كافة لم تنضجها الروية . وان كل ما يعلمه الانسان انما هو نتيجة تجارب تمت قبل يومه وخارج دائرته ولكنها انتهت اليه بالسماع أو بالمطالعة : وعندما نتناول تلك الحقائق بالاستقراء والتعميم نحصل بقدر ما على أفكار صحيحة خاصة بأجزاء من الكون . أقول بقدر ما ، لأنه من أجل أن نؤكد

أى شىء عن أى جزء من الـكون بصورة مطلقـة لا سبيل للشك فيها ، يلزم أن نـكون قد ألممنا بالعدد اللانهائى من الحقائق التى يتكون منها هذا الشىء . وهـذا عمل من وراء طوق العقل البشرى ، وتشبه معرفتنا من هذه الوجهة خريطة تخطيطية مفصلة مرسومة بمقدار من الدقه ، إن قليلا وإن كثيراً ، وإن أحسن الخرائط اتقانا وإبداعا لبعيدة عن أن تكون مطابقة لنفس الصقع ، ولـكنها مع ذلك تعطينا فكرة عنـه . بل إن أقل الخرائط دقة وعناية ، ليست عديمة الفائدة

وكلما اتسعت معارفنا وترامت حدودها فقدت مقداراً من التثبت والتأكيد يوازى هذا التمدد والاتساع ، فماذا يكون إذن إذا زعمت نظريتنا إنها تشمل الدنيا برمتها ؟ يذكرنى موقفنا فى تلك الحالة بالتأثير الذى قام بنفسى إحدى الليالى فى إيالة « بسكا [1] » وكان هناك مصباح ينير الرمل والحصباء الى مسافة خطوات قليلة ، ووراء هذه الحلقة الصغيرة من النور غياهب الظلماء متراكبة ولو حاولت أن أضمن وجود سهل أو جبل أونهر أوصخرة على سيرة كيلو متر من المكان ، لكن ضمانى هذا دعوى لايقرها العقل . واننا لننحو هذا النحو فى تفـكيرنا إذا حاولنا أن نحكم على العالم كافة من البقعة التى تقيم فيها .

---

(١) في الجزء الاوسط من شرقى بلاد الجر

فيلاليت

إذا ربأنا بأنفسنا عن أن نكون في مرتبة الحيوانات التى لاتشغل بالها إلا بالغرض الذاتى من حواسها وجشع شهواتها ، فإننا مرغمون على أن نكون مما نراه فكرة مما لانراه

اتيفرون

ليكن ذلك كذلك ، ولكن ينبغى لنا أن لاننسى أن آراء كهذه لاتزيد على ما سماه القدماء « عقائد الفلاسفة » وإن شكا على لاينى يرفرف فوق هذا الضرب من المباحث الفكرية ·ولا يبرح الشك يقفوا أثر كل مسألة متحامية الحل .أليس تركيبنا النفسى فى صميمه وهو العين التى نبصر بها الواقع — عُرضة لان يغش ويخدع ؟ ألسنا ألاعيب وهم لامفر منه ؛ من المحال أن نجيب على سؤال كهذا دون التورط فى القياس الفاسد

فيلاليت

ليس من عادتى أن أقف مدفعا مصدودا إزاء هذا الشك الذى أفضى بكثير من الفلاسفة الى طريق يضل سالكه.وبما أننا عندما نستعمل آلة العقل استعمالا علميا ونعتبرها مقياساً صادقا ثابتا للواقع ، لاتقع فى الخطأ، فاننا مضطرون الى أن نستنبط من ذلك أن هذا العقل مقياس صالح يصح الاستناد عليه والأخذ به ، وتثبت

صحة الميزان إذا غيرنا المقادير الموزونة وحصلنا على نتائج ثابته

ايدوكس

أضف الى ذلك أن الانسانيه ليست وحدة كما تصورها « ديكارت » وكما تصورها « كانت» نفسه . وإننا نعرف انسانيات عدة . أشهرها نوعان رئيسيان . ذلك النوع الذى تناسل فى آسيا الغربيةوالنوع الذى انتشر وتزايد فى آسيا الشرقية.وأقصد الصين . وهذه الانسانيات المتنوعه — ولو أنها غير متساوية فى الانتشار — قد صيغت نفسياتها على مثال واحدتقريبا . ولسنا نعدو الحق اذا قلنا إن الانسانيات الأخرى الشائعة فى فسيح المكان لاتختلف عنا اختلافاجوهريا من ناحية تصورات العقل والاخلاق الاساسية . ولقد يكون الاختلاف بيننا وبينهم أقل مما يختلفه رجل صينى أو أندمانى

فيلاليت

هذه أوقات محزنة . وهانحن نسائل أنفسنا عشرين مرة فى اليوم هل للحياة قيمة وقد ؟هوى كل ما كنا نحب من شاهقه . سعيد الرجل الذى لايزال يعتقد فى مدينة الله الخالدة ، والذى يمكنه أن يتلقى الموت ببشاشةوسلام كما تلقاه القديس « اجستن»

أثناء حصار «هبون» . أتريد أن نستعرض أفكارنا العامة عن الله والكون ؟ الرأى عندنا أن نعاود التفكير فى هذه المسائل كل عشر سنوات لاجل أن نعمل لانفسنا مايشبه الميزانية للمقادير التى استبدلت منذ التصفية الاخيرة

ايدوكس واتيفرون

بكل ارتياح وقبول

فيلاليت

أما عن نفسى فمن عادتى تقسيم أفكارى فى هذا الموضوع الى ثلاثة أقسام . القسم الاول ، وهو لسوء الحظ أضيقها حدودا ، هو قسم المؤكدات . والقسم الثانى قسم المظنونات . والقسم الثالث قسم المتخيلات . وسنمسك يا اتيفرون عن الإشارة الى الاخير إذا شئت ولو انه ربما كان الاعز علينا جميعا .

اتيفرون

الأحلام صالحة ومفيدة على شريطة أن نأخذها على أنها أحلام . ألا تتذكر نظرية «هجل» العظيمة « إنه من اللازم أن نفهم الغير مفهوم كما هو »

ايدوكس

يمكن فيلاليت أن يتقدم الينا الآن بشرح المؤكدات من أفكاره عن العالم بكليته

فيلاليت

عند ما أفكر فى العالم بكليته أرى شيئين مؤكدين إلى حد إنى إذا لم أوفق فى الكشف عنهما لكل من ألم بمبادىء العلم فسبب ذلك قصور منى فى التعبير عنهما . الأول هو أننا عندما نتناول بالتحليل كل مايحدث فى الكون داخل حدود المشاهدة لانرى أبرا الكائنات معروفة أسمى من الإنسان تعمل بمشيئات خفية كما يزعم مابرانش

(ايدوكس)

وضح لنا طريقة فهمك لهذه الكلمات

فيلاليب

لو لم يكن الانسان فى هذا الكوكب السيار الذى نسكنه لكان شكله مغايراً كل المغايرة لماهو عليه الآن . أو — بلفظ آخر — أن الانسان يؤثر فى تطور الاشياء بأعتباره سبباً من الأسباب اما خارج هذا الكوكب فليس للانسان من تأثير . وذلك لأن كوكبنا لايؤثر فى العالم تأثيراً كبيرا إلا من ناحية الجاذبية والانسان لم يغير قوة الانجذاب وليس فى وسعه أن يغيرها . ولكن مع ذلك فانه لما كان أقل عمل ذرى ينعكس أثره فى الكل . ولما كان الانسان هو السبب العرضى على أقل تقدير لعدد من الاعمال الذرية لذلك

يمكننا أن تقول بأن الانسان يؤثر فى الكل بمقدار يتناسب مع الفرق الدقيق بين الدنيا وهى آهلة بالانسان وبين ماتكون عليه وهى مهجورة خالية منه . ويمكننا أن نجزم بأنه حتى الحيوانات تؤثر فى العالم باعتبارها سببا . لأن الكوكب الذى لاتسكنه سوى الحيوانات يتخذ سطحه مظهرا مرده الى ارادة الحيوانات الحرة مخالفا للشكل الآلى الصرف الذى لاتلمح فيه اثر اى عمل من أعمال الارادة

ومن هنا نستخلص انه اذا كان ثمت مخلوقات تعمل فى الكون عمل الأنسان على سطح كوكبه أو بشكل أبلغ فى التأثير لكنا أدركناها ببعض الطرق ؛ وإذا جيء بمخلوق عاقل من دنيا أخرى الى دنيانا هذه فانه يدرك قبل أن يصادف أى انسان أن هذا الكوكب تسكنه مخلوقات عاقلة حرة مثله ماهرة فى ابتكار الوسائل لبلوغ المآرب ، وأن منظر طريق أو رؤية حائط قائم أو مشاهدة صف من الاشجار كافية لتؤكد ذلك تأكيداً لامساغ للشك فيه . كما روى عن أحد القدماء أنه رسا على جزيرة ورأى بها أشكالا هندسية مخطوطة على الرمل فاستدل على انه « لابد من وجود ناس هنا » . ولكن منظر العالم لايكفل لنا الوصول الى مثل هذا الاستدلال . حقيقة ان كل شيء فى الوجود تام النظام والاتزان. ولكن لايوجد فى ثنايا الحوادث قصد خفى . وكل الكوائن

تتبع سنناعامة ولم يثبت مرة واحدة الشذوذ عنها لغرض خاص وان اظهار الحدب على الرجل الفاضل أو العطف على القضية العادلة لاحدى الحالات التى كان يمكن أن يكون من الطبيعى فيها الخروج عن حدود تلك القوانين . ولكن شيئا مثل هذا لم يعرف

ومن خصائص الطبيعة عدم الاحساس المطلق وتساميها فوق منازع الاخلاق أولا اخلاقيتها العالية اذا اجترأت على هذا القول وأن لاأخلاقية التاريخ والظلم الكامن فى الجماعات البشرية ليسا أقل من ذلك فتيلا . ومهما عمانا فانه سيكون من المستحيل على الدوام أن يكون المجتمع عادلا . وأنا أعلم أن أغلب الناس يعتقدون بوجود « آلهة » تحمى حمى البراءة وتنتقم للجريمة وأنها عرضة للاستفزاز والترقيق . وانما كان ذلك كذلك لانهم لما كانوا لم يتشبعوا بالروح العلمية فليست عندهم القدرة التحليلية ولاقوة الملاحظة الكافية لادراك أنه لايحدث فى مجرى الحوادث تدخل مخلوقات اسمى ينم على ارادة . ولو وقع مثل هذا التدخل المزعوم لثبت ، ولكنه لم يقم دليل على وجود أثر لقوة عاقلة فى سير الحوادث وأحوال الدنيا المتشعبة الكثيرة وان عالم الملاحظة من السعة وترامى الاطراف بحيث لو كان وقع فيه مثل هذا التدخل لشاهده أحد الناس

ايدوكس

أتنكر تأثير الدعاء والتوسل ؟

فيلاليت

لا انكر قيمة الدعاء باعتباره ترتيلا صوفيا ، وكل مايعرب عن أعجاب أوسرور أو حب هو دعاء فى هذا المعنى،ولكن الدعاء المغرض — الذى يتوسل به المخلوق المحدود الى أن يقيم ارادته محل ارادة الكائن غير المحدود — اقول مثل هذا الدعاء انكره كل الانكار واعتبره خطأ فى حق الله صادراً عن نية حسنة بلاريب . «اوزوريس يرتشى بقطعة صغيرة من الكعك » . والناس تحاول ان ترشى الله بالهدايا الصغيرة . وفى عصور الفطرة عند ما كان يصيب السرطان احد الابطال كانت الناس تظن ان الله يلتقمه . ومن ثم كانوا يقدمون للأله طعاما جديدا راجين بذلك انه قد يفضله على لحم المريض ويتركه ينجو بنفسه، والرجل المجرد من الروح العلمية يعتقد ان هناك كائنات تتدخل مباشرة فى شؤون الدنيا ويتوهم انه بمناجاة هذه الكائنات يستطيع ان يستجلب معونتهم فى تحقيق رغباته ولكنه لم يثبت مرة واحدة ان دعاءً كهذا أسفر عن مثل هذه النتيجة

ولقد كان الفلاسفة اليونانيون يعرفون ذلك حق المعرفة . فان أحد هؤلاء الفلاسفة — وهو دياجوراس من مدينة ميلوس —

لما رأى القرابين التى تقدم بها الملاحون فى معبد بوسيدون قال : « الناس يحصون الذين نجوا ولكنهم لايحصون من غرق وقد قدم قربانا كغيره » . وهذا كلام جيد ، وفى أمثال هذه المسائل لايحصى الناس الا من ساعفهم الحظ ولكنهم لاينظرون الى الذين لم يحققوا هذه الاوهام التى نحاول نسجها حول نفوسنا . وهذا هو تفسير المعجزات كافة ، والدعاء هو فى الحقيقة التماس معجزة لان من يدعو الله انما يلتمس أن تتغير من أجل مصلحته الخاصة السنن التى تجرى عليها الطبيعة . والمريض الذى يدعو للشفاء عندما يكون من المحتم موته وفاقا لنظام الاشياء الطبيعية انما يرجو معجزة ، وهو يدعو لينقل المرض القاتل المميت عن طبيعته والفلاحون الذين يقيمون الحفلات للاستسقاء أو لايقاف الامطار يطلبون معجزة أيضاً فهم يدعون لسقوط الامطار فى وقت يقتضى نظام الطبيعة عدم سقوطها . وهذا يتطلب انقلابا كليا ظاهر القصد فى الجو . وأن الامطار الكثيفة التى تهطل فى شهر يونيو متوقفة على الحالة التى طرأت على الثلاجات فى القطب الشمالى فى شهر مايو . وفى حالة كهذه يقتضى أن يكون الله الذى جرت فى علمه الادعية التى ستوجه اليه قبل شهر من ارسالها قد ألقى باله الى حركات الثلاجات وعاق تكوينها . أو أن يكون قد منع الثلوج المقبلة نحو الجنوب من

أن تؤثر تأثيرها المألوف فى تبريد الابخرة وتكثيفها وماذا يكون ذلك إذا لم يكن معجزة ؟

ولأجل تدعيم أساس الاعتقاد بهذه المسألة يلزم أن يكون فى مستطاعنا أن نجرب حالات كان فيها توجيه الدعاء باعثاً على تسيير الحوادث فى مجرى مخالف لما كانت تسلكه لو انقطع الدعاء . ولكن برهانا كهذا لم يحاوله أحد بعد ولن يحاول . وما زالت الناس تدعو منذ بدء الدنيا . ومع ذلك لم يوفقوا فى اثبات أن دعوة من الدعوات أو نذراً من النذور جاء بالغاية المبتغاة . ولقد عثر المنقبون حديثا بثلاثة آلاف مخطوطة بونية كلها مشابه بعضها البعض . وكل واحدة منها يؤكد لنا فيها أحد اتقياء القرطاجنيين أن تانيث وبعل هامون قد سمعا دعاءه وأنه رفع هذه المخطوطة شاهدا ناطقاً . ولا بأس فى ذلك الى هنا . ولكن تانيث وبعل هامون آلهة زائفة . ومامن أحد يقول الآن انها كانت تستطيع اغداق النعم . فالثلاثة آلاف مخطوطة اذن شاهدة بالتورط فى الخطأ وليست الابنية التى شيدت للنذور والادعية بدليل على صدق النذور واستجابة الادعية . ولو أجمعت جمهرة الناس على الاعتقاد بأنهم جربوا تأثير الدعاء لما أثبت ذلك شيئا . ولقد كان هؤلاء القرطاجنيون يودون أن يحملونا على الاعتقاد بأنهم جربوا نفس

هـذا التأثير. وكانوا واهمـين فى ذلك لان آلهتهم كانت بلا حول ولاقوة كما يعلم الآن جميع الناس .

ومن اليسير أن نفصل فى هذه المسألة بالعودة الى الاحصائيات ففى أوقات الجدب تقيم نحو ثلاثين أو أربعين أبريشية فى مقاطعة واحدة الحفلات رجاء الاستسقاء . وتمسك عن ذلك نحو عشرين أو ثلاثين أبريشية . وبحفظ بيانات عن ذلك حفظا جيداً وبمشاهدة حالات كثيرة يكون من السهل التأكد إن كان لهذه الحفلات أى تأثير وان كانت الابريشيات التى قامت بهـا كان نصيبها من الرعاية أوفر من نصيب غيرها . ومما اذا كانت كمية الامطار التى غمرتها مناسبة لحماستها الدينية

ويمكن تكرير العملية بأسـاليب عدة مختلفة . يمكن مثلا أن نهيء حجرتين بهما أطفال مصـابة بمرض واحد مع اصطناع الحيطة فى عزلهم حتى لايتسرب الغش الى النظام. ونسمح للمتدينين أن يضعوا فى احدى الحجرتين بعض التمـائم التى يقال أنها تملك القدرة على اتيان الخوارق . وتترك الحجرة الاخرى عاطلة من ذلك وننظر فيما يسفر عنه هذا الترتيب من فرق محس قابل للتقدير . ولـكن أحدا لم يحاول هذه التجربة ويوافقنى عقلاء الناس بأجمعهم على أنه اذا أجريت هذه التجربة فانه من السهل اليسير التكهن بنتيجتها

ويلاحظ فى حوادث التاريخ عدم وجود أثر لتدخـل قوة

فوق الطبيعة . وان أتقى الامم وأشدها تعلقا بأهداب الدين يهزمها في الغالب أمم أقل منها تقوى واستمسا كا بعروة الدين دون أن يكون في وسعنا أن نقيم الحجة على أن عناية اسمى قد صادفت فئة غير الفئة الاقوى . وأن مايدعونه « إله الجيوش » يأخذ على الدوام جانب الامة التى تملك أحسن مدفعيــة وتستعمل أمهر قادة .

والطبيعة في تصرفاتها وتدبيراتها تظهر عدم الا كتراث المطلق للخير والشر والشمس تشرق على السواء للخير والشرير

ولايوجد ثمت حقيقة واحدة تكرهنا على الاعتقاد بوجود كائنات محدودة خارجة عن الانسانية قادرة على العمل فوق كوكبنا ولست أرمى من وراء ذلك الى أن انكر انكارا مطلقا وجود كائنات عاقلة عاملة خارج نطاق الانسانية ، وانما جل ما أقصده هو أن كائنات كهذه لاتؤثر بعملها فى كوكبنا ولا فى حركة النجوم . لانه لو كان هناك تأثير خاص معين كهذا لــكنا أدركناه وانتهينا الى حقيقته . ولنفرض أن طائفة من النمل انشأت جمهوريتها فى مكان مهجور لايطرقه أحد من البشر إلا مرتين أو ثلاث مرات فى غضون قرن ولنفرض أن هذا النمل قادر على معرفة الطبيعة والوقوف على نواميسها ولــكنه لايستطيع أن يفسر مسألة هذا الــكائن الضخم الذى يهدده بالسحق ، ففلسفة النمل الطبيعية فى هذه الحال ستكون مماثلة لفلسفتنا ولــكنه سيضطر الى تقرير ان السنن قابلة لأن تنقض

تقضا مبهما غريباً لمدة دقائق كل أربعين أو خمسين سنة عند مرور كائن غريب هائل وقوة غامضة تعترض طريقه وتقلب كل شيء ولو كان فى النمل فلاسفة لما خلطت قط بين مرور هذا الكائن وبين هبوب عاصفة أو اندفاق ماء وغير ذلك من المظاهر الآلية المنزهة عن القصد والتعمد ؛ وسيكون الانسان الذى يتصوره تصوراً مشوبا بالغموض واللبس — فى نظره شديد الشبه بالله عندالقدماء فهو كائن أقوي من الانسان يتدخل من الحين الى الحين في شؤون الأرض وأحوال الدنيا ، ولم يثبت يوما أن كائنا كهذا موجود خارج عالم الانسانية . ولم تر الانسانية مظهرا يشابه المظهر الذى توهمنا أن النمل شاهده فى الافتراض الذى فرضناه ، ولقد كانت الانفجارات البركانية والزلازل والاوبئة تعتبر قديما حوادث من هذا القبيل ، وأنها نذير غضب الله ، ولكن فى هذه الايام لايعتقد بذلك رجل حسن التثقيف ، وهذه الحوادث تعتبر الآن طبيعية ، وليست هناك أكاديمية من أكاديميات العلوم تقول أن من أسباب ثورة بركان جوريلو أو هيكلا الجرائم التى يقترفها المكسيكيون أو أهل ايسلنده ، وهناك بلاد أقل تمسكا بالاخلاق من أهل ايسلنده ولا تعرف فيها الزلازل

ايدوكس

أهذا هو محصول فقهك ؟ أنه فقه معرق فى النفى الى حد غريب .

فيلاليت

تمهل قليلا ! لقد بينت لك انى اقبل فرضين فى الفقه واعتبرهما مؤكدين . فكما انى اعتقد اعتقادا جازما لايتسرب اليه الشك انه لا نزوة عارضة ولا ارادة خفية تتدخل فى نسيج الحوادث التى يتكون منها العالم فكذلك اعتقد انه من الواضح الوضوح كله ان للدنيا غاية تسعي اليها . وانها مثابرة باستمرار على القيام بعمل مبهم خفى . وهنالك شئ ينمو ويتطور بضرورة داخلية وبغريزة غير تنبهية وبطريقة مشابهة لحركة النبات الى الماء والهواء وللمجهود المندفع بلا روية الذى يبذله الجنين ليترك الرحم . اولتلك الضرورة الداخلية التى تهدى تقلبات الحشرات وترشد نشوءها وتكوينها . والدنيا عاكفة على عمل شىء من الأشياء كما يقول القديس بولس «الخليقة كلها تئن وتتوجع وهى فى رحلة وانتقال» . والحافز الاكبر فى سير الدنيا وحركتها هو الالم المخلوق غير القانع الذى لايفتأ يتشوف الى النماء ولايقر له من أجل ذلك قرار . والظروف السمحة اللينة تولد الجمود فى حين ان الضغط والمقاومة هما بدء الحركه والضغط هو الذى يجعل الماء يرتفع ويرسم سيره . وبلوغ الفتاة ينشأ من بيضة نضجت للحياة وتطلعت اليها وكل شئ فى هذا الوجود من السمك النجمى المخمس الشكل الذى يهضم — ذلك التركيب العضوى المفرد الذى كان وجوده ممكنا بلا نزاع فى اول عصور الدنيا — الى أسمى

انواع الانسان يتطلع الى الوجود ويحاول ان يؤكد وجوده ويحرز أكبر قسط منه. وكل شيء ممكن يريد ان يرى تحقيق كيانه . فكل شعور غامض يعاني ويجاهد لينتفي عنه الغموض وليصير أكثر شعورا واوضح وأجلى ، والعالم في آلام تطوره الذى لاينقطع يشبه القلب الكبير الفائض بالحب الواهن الغامض فالجسم الكامل النظام يرمي الى تحقيق مثال ، وكلما نما يكتسب اجزاءه المختلفة ويخلق لنفسه أعضاء بمجهود لا روية فيه ولاأناة يمكن أن تتنبأ بتأثيراته من قبل ، وكل مثال يستمد من نبعته كل ما يحسه من ناحية كماله الفردى ، وأى اختراع بشرى يصح أن يقارن بالمصاصات التى زودبها نفسه الاخطبوط بفن عميق متغلغل وما يصدق قوله عن المنال الحيوانى يلزم ان نقوله عن الوطن والدين وعن كل حقيقة عضوية ، بل يلزم ان نقول نفس ذلك القول عن الانسانية والكون بأكمله ، ونحن نحس بأن هناك مجهودا عظيما لتحقيق غاية ولملأ مثال وبلوغ وحدة متزنة او ايجاد شعور ووعى وان الشعور الكلى لايزال غامضا ملتبسا الى حد كبير وهو لايفوق شعور المحار أو ذوات الارجل العديدة ولكنه مع ذلك موجود ، والدنيا تتقدم الى الامام بغريزة لاتخطىء غرضها وان مادية العلماء الآلية في أواخر القرن الثامن عشر لتظهر لى من أعظم الاغاليط التى ترتكب

اتيفرون

خذ حذرك لئلا تفضى بك وجهة بحثك هـذه المسألة الى الاقتراب من فلسفة الأسباب النهائية العتيقة . تلك الفلسفة الساذجة فى تفسيرها وشرحها

فيلاليت

لم تخطىء هذه الفلسفة الا فى الصورة ، وما قد ألحقته بنظام الـكونية والخلق يلزم ان يدرج الآن فى نظام التطور والنشوء البطىء ، والتلمود يقول « لعمل الملاقيط كانت الملاقيط لازمة تخلقها الله » . وهذا خطأ لأن الملاقيط صنعت تدريجا وبالآلات تدرجت فى التقدم . وعلى هذا الاسلوب تم خلق الانسان والحيوانات والحياة وان مظاهر الشعور فى حالته الغامضة هي مكان الله المناسب . وا كثر مايتجلى الله فى الحيوان والطفل وفى الرجـل من غمار الناس وفى الرجل العبقرى الذى هو ايضا حسب نوعه طفل واحد الناس ايضا ، وأن الله هو عقل من لاعقل له ، وهو المحرك الخفى الذى يوجد الاشياء ويكونها تبعا لنواميس الجمال والاتزان وهو العدد والوزن والقياس الذى يجعل الدنيا متزنة أبدية

وأشد ما يزيدني ايمانا بهذا الرأى هو طائفـة الحقائق التى نقف فيها على خداع الطبيعـة للافراد وتغريرها بهم لغاية أسمى

منهم، ولنتأمل مثلا كل ما يتصل بمسألة التناسل، وكيف جعلتنا الطبيعة نشعر كل الشعور بالاهمية التى تعلقها على الاحتفاظ بآداب الفرد، فهى تحف هـذا الكنز — هـذا النبع لـكل حياة — بضروب لاتحصى من الاحتياطات وهي لم تكتف بان تقعد به اللذة فحسب بل قد وكلت به الوانا من الغرائز وصنوفا من العواطف المتناقضة كالحياء والاحتجاز والشهوانية والاستخزاء والرغبة، وذلك مثل امراس السفينة للشد والتوثيق والصد والمنع والاغراء . وهى تنزل أقسى العقوبات وأشدها نكرا بمن أسرف وسدر ، والطبيعة نفسها تشترط أن تكون المرأة عفيفة صائنة وألا يكون الرجل عفيفا الى مدى بعيد . ومن ثم فان طائفة من الاحكام المقررة تنهال على المرأة التى لا تصون عرضها فى حين أن الرجل غير العفيف لايلحقه سوى رشاش من السخرية والاستهزاء . وعواطف مثل هذه عندما تكون متوشجة الاعراق شديدة التأبى تكون جزءا من الطبيعة نفسها . والطبيعة فى تدبيراتها ترمى الى غاية اخلاقية اكثر مما تنظر الى اشباع أنانية الفرد

والرغبة هى المحرك الذى اتاحته العناية تعمل . وكل رغبة تنطوى على وهم . ولـكن النظام الذى تجرى عليه الامور لايشعرنا بفراغ الرغبة الا بعدارتوائها. «وبوتوس» هو اقدم الآلهة ميلادا وسيظل كذلك . ومادة التلقيح فى النبات تجاهد بلباقة فى الولوج

الى البويضة حتى لكأنها تعلم قوانين الفراغ . وكل مطلب من مطالب الرغبة تنكشف لنا تفاهته عند ادراكه . ولم يشذ عن هذه التجربة شيء منذ اول العالم . ولكن برغم ذلك فان هذا لا يثنى هؤلاء الذين يعرفون هذا حق المعرفة عن الجرى وراء الرغبة . وسيظل الاكليروس يبشرون بفلسفة الاعزب الذى لا تخدعه الاوهام وسيظل الناس يعترفون بصدق هذه الفلسفة . ولكنهم سيظلون مع ذلك يعدون وراء الرغبات فاى تناقض !

ان الطبيعة تريد تكاثر النوع وتلجأ الى آلاف الحيل لبلوغ هذا الغرض . والجم من اعمال الكائنات ليس نتيجة التقدير الذى يعود بالفائدة الذاتية . ولقد اركزت الطبيعة فى الحيوانات الدنية من عطف الامومة ما يكفى لحفظ نوعها . وقد منحت الانسان نصيبا من النزاهة يسمح له بالانتقال الى حياة اسمى . وان الفراشة القصيرة العمر تعيش ثلاث سنوات فى دور مابين النقف والتقرش وتنتهي حياتها فى اليوم الذى ينبت فيه جناحها . وهى فى خلال هذه الفترة القصيرة تتناسل وتبيض وتموت . وليس ثمت من غريزة بدون غرض . وعندما نرى فى الطبيعة البشرية آلاف الحقائق التى لا تفسرها اللذة ولا المصلحة تفسيرا كافيا يمكننا ان نستخلص فى غير تردد انها ادوات آلة اعدتها الطبيعة ولو ان غرض هذه الآلة من الصعب اكتناهه . والانسان يشبه العامل فى جوبلنز الذى

ينسج بطانة الوشى التى لا يعرف طريقتها ولا يرى غايتها. وانما هو يعمل لقاء فرنكات قليلة يتقاضاها فى اليوم . ونحن نعمل لاقل من ذلك . نعمل بوهم العمل الصالح فاى حيوان شريف الانسان ؟ وكيف يحسن حمل نيره ! وما اصدق وأعمق صورة الجحش فى بلاتين « « اعمل ايها الجحش كما كدحت فانه سينفعك »

ومن الواضح اننا مسخرون لخدمة غرض من الاغراض وأن الطبيعة تستخدمنا وهنالك شىء يتم على حساب ما نبذله من مجهود . واننا ألاعيب انانية اسمى تتبع غرضها بطريقتنا. وان العالم لهو هذا الانانى العظيم الذى يجذبنا الى الشرك بأفظع أنواع الخداع. مرة باللذة التى يطالبنا بعد ذلك بان ندفعها مقدار معادلا من الالم. ومرة بجنة وهمية لا نرى فيها ظلا من الحق حالما نستقر فيها. وتارة بوهم الفضيلة الذى يحملنا على تضحية اوضح مصالحنا لغرض خارج عنا وبعيد عن دائرتنا. والطعم ظاهر ولكننا سنتناوله وسنعمل ذلك على الدوام

اتيفرون

ليس هذا عجيبا الى الحد الذى تتصوره، ولا يمكن وجود الدنيا الاعلى الغرار الذى وصفته ، ولو كانت الانسانية من الذكاء والفطنة بحيث يستطيع افرادها ان يستبينوا كل شىء لكان من المستحيل بقاؤها، بل كانت تموت فى جرثومتها ومن ثم لا توجد، وانك فى ذلك كأنك تتعجب من عدم وجود فقرى بدون قلب

فيلاليت .

ولكن أشد مايثير دهشتي هو وجود كائن يقتضي تركيبه ان يعيش لغرض خارج عن نفسه وان يضحي في بعض الاحيان شخصه في سبيل هذا الغرض ،فوجود هذا الكائن هو مناط دهشتي وموضع تعجبي، وان فضيلة الانسان لاقوى دليل على وجود الله، والكون فى تصرفه بالانسان يتراءى لنا كطاغية محتال ينزلنا على ارادته باساليب مكيافليه ويدير الامور بحيث لايفطن الى تلبيساته الا القليلون، لانها لو وقف عليها كل انسان لاستحال وجود الدنيا والطبيعة تحرص على فضيلة الفرد ،واذا نظرنا من ناحية المصلحة الشخصية وجدنا ان هذا وهم لان الفرد لا يستمد نفعا من فضيلته ، ولكن الطبيعة مفتقرة الى فضيلة الفرد ، وقد احتالت لذلك بقانون الواجب أعظم الهام واصدقه بل الالهام الفذ، وان آكد فضيلة لهى الفضيلة القائمة على الشك النظرى ، وليس ثمة فى الحياة العملية من إنسان يخاطر بمائة فرنك رجاء ان يكتسب مليونا باحتمال حياة مقبلة ،ولكن مع ذلك فان كل إنسان يستسلم للموت او يعدل سلوكه تبعا لمثل هذا الاحتمال، والاصل فى ذلك ان هناك ناحية فى العقل الانسانى لا تقتصر على الوجه النظرى مثل سائر نواحيه بل تأخذ بمخانقنا وترغمنا ، وان الطبيعة لتتعمد خداعنا لأجل غرض سام يسعي اليه الكون وهذا الغرض خارج عنا

والأكاذيب المباركة التي تلفقها الطبيعة لدراك غايتها وهى أدب الفرد تدهشنا لو حاولنا أن نحيط بتفاصيلها . وأن اعتقادات الدين الطبيعى — وكلها مشتقة من قانون الواجب — لتشبه شبكة توقعنا فى أسرها أوشراب الحب الذى يستغوينا . ولايجدى هنا النقد ولا الفاسفة النافية . وأننا نعتقد بالله ونؤمن به عند ما نكون فى أسعد حالة ، والدين للأنسان كغريزة الأمومة للطيور — تضحية بغير بصيرة لغاية مجهولة ارادتها الطبيعة . وهذا شىء سخيف فى حد ذاته : ولكنه صالح لأن الطبيعة تريده . بل هو أيضا صادق وأقدس من كل شىء لأجل ذلك . وهناك سياسة مفكرة متجلية فى كل مظاهر الشعور الغامض أو الوجود اللاشعورى . وأن غرضا عظيما يتم بتفانى الأنسان وتحريضك الأنسان على ألا يتفانى فى هذا الغرض هو مثلما تدعو الطير ليترك بناء عشه أو ألا يتعهد صغاره . وفى ذلك مقدار ضئيل من الضرر . والانسان والطائر سيستمسكان بأساليبهما الأبدية ويحرصان على طرق عملهما لأن الطبيعة تتطلب هذا التشبث . وهناك عناية حكيمة قد احتاطت لتضمن هذا المقدار من الفضيلة اللازم لحفظ العالم

ايدوكس

لو كان هناك رجال فى هذه الدنيا يأخذون بشمالهم ماتعطيه لهم باليمين مثلما يقول القدماء لأربكتهم اراؤك ، ومن ناحية أخرى

فان الماديين سيتهمونك بأنك تبحث عن التجرد من المصلحة حيث لايوجد ، والرغبة الأنانية فى نظرهم كافية فى تفسير كل الحقائق التى ترى أنت فيها خطة جيزويتية فى الطبيعة لأخضاعنا لأرادتها

فيلاليت

السبب فى دلك هو أن العلماء الذين يتقلدون اسم الماديين بغير حق فى الاغلب لم يحللوا طبيعة غرائزنا الاخلاقية والفلسفية والفنية تحليلا كافيا ، واذا فكر الانسان جيداً رأى أنه فى أكثر الامور له صالح مباشر فى ألا يكون ذا فضيلة . ولكنه مع ذلك مستمسك بالفضيلة فى أغلب أوقاته . ولو كان الحق والخير والجمال أشياء لاقيمة لها لتركها الناس من زمن بعيد لانها غير مثمرة . وأن النبوغ الصادق والفضيلة الحقة والعلم الصحيح تضر بمصالحنا ولاتعيننا على النجاح بل هى تعوق النجاح . وفى بعض الاوقات تجر عليه البلايا . ولولم يكن فى الصادق قيمة مجردة لقضى التطلع البشرى الى المعرفة نحبه من زمن ولو لم يكن الصالح مطالب ارادة أكبر من ارادتنا لعلمتنا آلاف النجارب أن لانغربه ونخدع ، والرجل الفاضل والعالم والفنان العظيم هم أسطع البراهين على وجود الله . ولكن أبسط الحقائق النفسية اذا احسنا استخبارها أدت الى نفس النتيجة. ومن الاوهام التى تتطلبها مصلحة الانسانية ومصلحة الامة فان مسألة روح

العائلة لها المكان الاول والفضائل العائلية لازمة لبقاء المجتمع سليما.
وقد احتاطت الطبيعة لذلك بعيوب غريبة فى المنطق تخدع أشد
الناس تهذيبا وأكثرهم انهما كا لحسن الحظ . والاكتفاء بالزوجة
الواحدة لادليل عليه فى بنية الانسان . ولكنه لازم وجوهرى
لتكوين الشعوب العظيمة وحفظها . وقد اكتسب من الاراء قوة
قانون شبيه بالطبيعى . وعدد كثير من أفضل المواطنين لايعيشون
الا ليتعهدوا أولادهم ويربوهم . ولايكون لأولادهم هؤلاء شغل اذا
بلغوا حد الرجولة سوى تعهد أولادهم أيضا . والقياس الفاسد واضح
ولكنه لايعوق انسانا لان الطبيعة مفتقرة الى هذا الاهتمام النزيه
وهى تحفظ لنفسها فرصة أنه قد يبرز من أكنان هذا الغموض
رجل من الطراز الاول يتصرف برأس المال الذى جمعه له نشاط أجداده
ويستثمره فى وقت قصير أحسن استثمار لصالح الفن والعلم والسياسة
ويمكن أن نلحظ ماكيافاية الطبيعة الغريزية علاوة على ذلك
فى الخداع العظيم الذى ينطوى عليه الصلاح . وان صلاح طبيعة
الكلب لايفتر ولو أنه يسبب له الخيبة وسوء المعاملة . ومعاملة
الانسان المهينة لاتسيؤه لانه يحب الانسان . وهو يشعر بتفوق فى
ذلك . وهو يزهو ويفخر بأنه يشارك فى حياة دنيا أسمى ، ولو كان
الواجب نتيجة تفكيراً نانى أو فلسفى لنبذه الكلب من زمن لان
الانسان يقسو عليه فى بعض الاوقات ويجحد عطفه وهذا أيضاً

يصدق عن أدب هؤلاء الذين تصطفيهم الطبيعة ليقوموا بدور تضحية النفس . وسيوجد على الدوام ضحايا راغبة فى تلبية مطالب الكون . والشعوب التى امتازت بالصلاح مثل الملاح البريطانى والفلاح الليثونى دريئة للاحتقار والمهانة من الشعوب الاقوى . والذى يطيع هو على الدوام فى الغالب خير من الذى يأمر والفرد الذى أوقف حياته على الصلاح والخير محتوم عليه ان يكون موضع احتقار ولكنه مع ذلك سيظل يلعب دوره لانه لازم لغرض الطبيعة . ويمكن أيضا أن تقول كثيرا عن الاستقامة ولو أن البرهنة فى هذه الحال تكون أقل قوة لان هناك عقوبة تنزل بمن ينحرف عن جادتها فى حين أنه ليس ثمت من عقوبة تحيق بمن انشق على الصلاح . والحقيقة أن الجميع متشابهون فى وقوعهم فى أحابيل الطائر الحكمة . ومحاولة محو عاطفة الورع من هذه الدنيا والعودة بكل شىء الى الانانية المحضة محاولة مستحيلة كمحاولة انتزاع أعضاء الامومة من المرأة ، والانانى المزهو بنفسه لانه اقام مذهبه فى ضوء المصلحة الذاتية هو نفسه من مفاتين الطبيعة ، والانانى يكذب مذهبه آلاف المرات فى اليوم ، وحياة الانانى نسيج من المتناقضات ومن الاعمال التى اذا نظرنا اليها من وجهة نظره وجدناها سخيفة حمقاء

ايدوكس

الحقيقة انى لا اعرف قديسا قد حمل انكار النفس الى الحد الذى حمله اليـه عالم من علماء عصرنا تعده العقـول السطحية كافراً وماديا

فيلاليت .

لقد اصبت مفصل الحق ، ولا يوجد فى مذهب من المذاهب قيمة مجردة للفضيلة مثلما لها فى مذهبنا . وطاعة الطبيعة عندنا هى الاشتراك فى العمل الالهى ، ولقد رأى « كانت » بعبقريته النادرة أن هذا هو أس الدين الذى ينشأ من العقـل العملى لا من العقل المفـكر ، والله وهو روح الدنيا الموكل بحفظها والقيم على مصيرها يحب الفضيلة ويقرها لانها تخدم غرضه ، ولانها تضيف حجرا الى البنيان الرفيع المتسامى الى الابد فالفضيلة مركز سام فى التكوين العام ، وهى الخاضض والمحرك الا كبر للخطة الالهية ومن ثم هى أقوى برهان على وجود هذه الخطة ، أن الفضـيلة موجودة ومن اللازم أن نفسرها ، ولا يمكن أن يكون هـذا الباعث اقوى شيئا زائدا عن الحاجة والدين فى الانسان كبناء العش للطير ، فانه بغتـة تتولد فى الكفى غرابة وخفاء غريزة لم يشعربها من قبل ؛ فالطائر الذى لم يسبق له ان باض ولم ير ذلك بعينه يعرف الوظيفة الطبيعية التى سيقوم بها ؛ وهو يعمـل بسرور واخلاص لغاية لا يفهمها ؛

وكذلك النحل يمج العسل والنمل يخزن ما يخزن بغريزة بعيدة عما يمليه الحزم الانانى

وقد تم مولد العاطفة الدينية فى الانسان على هذا النمط ، كان الانسان يجول غير مكترث ثم يسود فجأة سكون وكأنما يقف تيار حواسه ثم يرفع صوته « يارب ما أعجب مصيرى ! هل حقيقة أنا موجود ! وما هذه الدنيا ! وهذه الشمس هل هي « انا » وهل تنبعث من قلبي الاشعة ؟ ياأبتاه انى أراك وراء السحب ! ويعود ثانية ضوضاء العالم الخارجي وتسدل الستار على الرؤيا ، ولكن ابتداء من هذه اللحظة يشرع الكائن الانانى فى الظاهر فى القيام بأعمال لا تفسر وينجز أشياء تتنافر تنافراً ظاهرا مع مصلحته ويوقف نفسه لغاية لا يفقهها ويشعر بضرورة احناء الرأس والعبادة

آه ما أسمى سرور الرجل الصالح ! أنه مسالك الدنيا واذا وخزه ضميره عندما يستشعر العزلة ويرى نفسه عاجزا عن دفع اعتراضات الماديين فليبهش ويبشر فهو على الحق وهو الرجل الحكيم ، وهو واحد فرد بين مائة الف ، وهو الذى يخلص صود يوم والاقلية التى يتصل بها هى عماد هذا الكوكب ، ولا توجد الدنيا الا من أجله ومن اجل امثاله

فهناك اذن نظام أعلى للاشياء قد أحدقت بنا شباكه والطبيعة

تتصرف بنا تصرفها برعيل من المصارعين مقدر عليهم أن تسفك دماؤهم وراء غاية ليست لهم ، وهى تعاملنا معاملة المستبد الشرقى لمماليكه الذين يستعملهم لغرض خفى دون أن يظهر لهم بنفسه ، ويقوم بنفوس هؤلاء نوعان من الشعر ، ففى فريق منهم ينشأ شعور الثورة والكراهة لهذا الطاغية (وهذا هو الموقف الاخلاقى الذى وقف عنده شوبنهور) وفى الفريق الآخر ينبعث شعور الاستسلام بل الشكران والحب لغرض الاشياء الخفى وهذا هو رأى نختته ، وهو الرأى الذى وفقت الى الاستقرار عليه

اتيفرون

أهنئك على ذلك ، وأنت موافق — على أى حال — ان كلتا هاتين الوجهتين شرعى الى حد ما ونحن نخدم غرضا قد فرضته الطبيعة . والطبيعة لاتكشف لناعنه . ونحن كما ترى ضحايا على غير ارادتنا . فهل ينبغي لنا ان نكون ضحايا مستسلمة ؟

فيلاليت

نعم يلزم أن نكون كذلك . وشوبنهور يناقض نفسه تناقضا يجعل موقفه أقل صحة من موقف نختته . فهو يسلم بان للعالم غرضا . وقد عرف بجلاء ما كيا فلية الطبيعة مثلا فى الحب . ولكنه لم يدرك ان هذا يكفى لتأكيد الاعتقاد بالله ولاثبات ان للفضيلة معنى . وكان ينبغى لشوبنهور ان يستخلص ان الفضيلة السامية هى

الاستسلام أى قبول الحياة كما هى وعلى انها تخدم غرضا اعلى . ومقدماته تدل على ذلك . واذا كان للطبيعة غرض فلنضع جهودنا تحت تصرفها . وطاعة الطبيعة واتباع تعاليمها أو على الاقل مسايرة نزعتها هى قانون . واذا كان للحياة قانون فانه يتبع ذلك ان لها معنى . وشوبنهور ليس ثائرا من طراز بيرون وهنريك هينى فان كليهما لم يعرف القانون الاخلاقى . بل هو فى ثورته أشد جرأة لانه غير مستسلم للطبيعة ويدعى حق عرقلة رغباتها ، فهو مذنب أولا وعديم الفائدة ثانيا لان الطبيعـة ستنفذ طرقها وقد أحسنت تصريف الامور وأحكمت الشبكة ومهما صنعنا فان الطبيعة ستبلغ غرضها وهو خديعتنا لاجل مصلحتها ، والمسألة الخطيرة هى ان نعرف ان كان للطبيعة غرض وهذا ممكن انكاره انكارا وجيها فى ظواهره ، ولـكن شوبنهور لاينكر ذلك ؛ ومن ثم فانه من الصعب ان نفهم لا اخلاقيته ، وأنا ارى بوضوح مع شوبنهور أن هناك أنانية عظيمة تخدعنا ولـكننى — واست فى ذلك مثل شو بنهور — مستسلم ، فانا اذعن وأخضع لأغراض الكائن الأعلى ومن ثم ترجع الآداب الى الخضوع واللاأخلاقية قائمة على الثورة ضد حالة للاشياء قد فطنا الى ما بها من خداع ويلزم ان ندركها ونخضع لها فى نفس الوقت

وثورة الانسان هي الجريمة الاصلية ، واذا تحرينا الصدق